بسم الله الرحمن الرحيم

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

المجلد ٦٣

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

October, November 2017 — أكتوبر - نوفمبر ٢٠١٧م

العدد السادس - المجلد الثالث والستون — محرم — صفر ١٤٣٩هـ

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد ، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزاد فيه، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم.

الإمام العلامة الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام: ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

مساعدا التحرير:

محمد فرمان الندوي

محمد عبد الله الندوي

المراسلات

البعث الإسلامي

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند) الفاكس: ٢٧٤١٢٢١-٢٧٤١٢٣١ — ٠٥٢٢

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Taigor Marg, Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Fax: 0522-2741221,2741231

Mob: 9889336348, 8400476826 Email: albaas1955@gmail.com

محتويات العدد

العدد السادس - المجلد الثالث والستون — محرم — صفر ١٤٣٩هـ

❖ الافتتاحية :

سؤال يتطلب الجواب ! — سعيد الأعظمي الندوي — ٣

❖ التوجيه الإسلامي :

المجتمع الإسلامي : حدوده وآدابه — العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي — ٧

نماذج تربوية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم — الأستاذ صفاء الدين محمد أحمد — ١٢

❖ الدعوة الإسلامية :

الاستعمار الفرنسي وكفاح الشعب الجزائري — الشيخ الطاهر بدوي الجزائري — ١٧

الحضارة العربية الإسلامية ومنهج استعادتها من جديد — د . محمود حافظ عبد الرب مرزا — ٢٢

تقبيل المصحف الشريف وحكمه في أقوال علماء الإسلام — الأستاذ محمد عمر شفيق الندوي — ٣١

❖ الفقه الإسلامي :

مظاهر حماية المستهلك من خلال النوازل الفقهية — الدكتور مصطفى البعزاوي — ٣٧

❖ دراسات وأبحاث أدبية وتاريخية :

القيم الحضارية في السنة النبوية ..... — د . محمد شاهجهان الندوي — ٤٣

إطلاق كلمة " المُسْنِد " في مصطلح الحديث — الأستاذ أبو أنس رفيع الله المروتي — ٥٣

المعجمية العربية : وصف ونشأة وأنواع — د . قمر شعبان الندوي — ٦٤

التبادل اللغوي ما بين المنطقتين العربية والهندية — د . مخلص الرحمن — ٧٦

❖ من دراسة شبابنا :

تاريخ المسلمين بين الرفض والتزوير — الأستاذ شعيب الحسيني الندوي — ٨٤

❖ صور وأوضاع :

معايير مختلفة للعنف والأمن — الأستاذ السيد محمد واضح رشيد الحسني الندوي — ٩١

❖ إلى الإسلام من جديد :

إذا لم تستح فاصنع ما شئت — محمد فرمان الندوي — ٩٥

❖ إلى رحمة الله تعالى :

١. حرم المقرئ مشتاق أحمد البرتابغري إلى رحمة الله تعالى — قلم التحرير — ٩٧

٢. الشيخ أبو سعد الندوي في ذمة الله تعالى — " " " — ٩٧

٣. الشيخ علي ملبا إلى رحمة الله تعالى — " " " — ٩٨

٤. الشيخ المفتي أشرف علي الباقوي في ذمة الله تعالى — " " " — ٩٨

٥. المحدث الجليل الشيخ ظهير الدين الرحماني في ذمة الله تعالى — " " " — ٩٩

٦. الأستاذ سلطان أحمد عضو البرلمان الهندي إلى رحمة الله تعالى — " " " — ١٠٠

٧. الدكتور السيد مجيد أشرف الندوي في ذمة الله تعالى — " " " — ١٠٠

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

سؤال يتطلب الجواب !

المسلمون المعاصرون لفي أمس حاجة إلى اليقظة الدينية والعقدية في كل مكان ، عددهم الإحصائي العام يربو ألف وخمس مأة مليون مسلم من كل جنس ولون ، ولهم دول وحكومات ، ولهم منظمات وجامعات ، ولهم وزن في ميزان العدل والنصفة ، ولهم صوت مسموع وعضوية في الأمم المتحدة ، ولديهم وسائل وإمكانيات طبيعية ومساحات جغرافية ، وعدد كبير منهم مثقفون ، ويتميزون بالمعارف والعلوم ، ويرون في القضايا الاجتماعية والدولية آراء قيمة وجديرة بالدراسة والتنفيذ ، كما أن جماعة من علماء الدين يشرحون معنى الإسلام وعلاقته بالتربية الصالحة وصوغ حياة الإنسان في قالب عادل من العلم والحكمة ، ويطالبون اجتماع المسلمين على مستوى الأمة الجامعة ، التي تتميز بالوسطية ، في جميع شئون الحياة والمجتمع ، وتصلح لقيادة العالم البشري نحو ساحة الأمن والسلام ، وبناء سد منيع ضد أولياء الشر والفساد (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

ولكن هذه الأمة وأفرادها ليسوا على مستوى واحد وليسوا على وصف موحد ، بل الواقع أنهم موزعون بين أنواع وأصناف متعددة من قديم ، إلا أن التصنيف الجديد سوف لا يكون مستنكراً من الناس ، ولا سيما بعد الأحداث الدامية والهجمات الظالمة التي تفترس المسلمين بأساليب منوعة في العالم كله ، يبدو كأن هناك مشروعاً خاصاً ضد المسلمين ، يريد أن يمزق وحدتهم ويجعلهم في آخر صف من المنبوذين المكروهين ، حتى لا يرفعوا رأساً إلى أي فضيلة إنسانية ، ويلاقوا مصيرهم بأي شكل من الإبادة الجماعية أو بإيجاد عوائق تحول دون انتمائهم إلى دين الإسلام والعمل بتعاليمه ، سواءً تم ذلك بالتهديد والتخويف أو بمقاطعتهم اقتصادياً واجتماعياً ، أفلا يمكن مع ذلك أن نضع المسلمين بين أنواع من الطبقات :

الأول من هذه الأنواع هم المسلمون الصادقون من العلماء والدعاة ورجال الإصلاح ودعوتهم الناس إلى الإسلام قولاً وعملاً وسيرة وقدوة ، ذلك النموذج الأمثل الذي مثله السابقون الأولون ممن اتبعوا السلف

الصالح من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، واهتدوا بهديه ، وساروا على دربه في كل صغير وكبير ، وقليل وكثير ، (تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ ٱللَّه وَرِضْوَاناً سيمَاهُمْ فى وُجُوههِمْ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُود) حياتهم مرآة صادقة للإيمان والإخلاص والتوكل والتورع ، والصبر والشكر ، والعدل والحكمة والجود والسخاء والحلم والعفو والتواضع واليقين والإيثار والتضحية والأخوة والحب والزهد والقناعة ، وأداء الحقوق من كل نوع ، وحسن التعامل والتواصي بالخير ، وحسن الظن والمساواة والمواساة والنصح والأمانة ، كل هذه الصفات الإيمانية تتوافر في هذا النوع من المسلمين أهل العلم والدين ، وهم ربانيون يعلمون الناس حياة الإيمان بالله والرسول صلى الله عليه وسلم ، ولهم مراكز ومجالس عامرة بالمسلمين المتعلمين ممن يبايعونهم على العمل بالدين الكامل ، وقد أحاطهم الله تعالى بالرعاية الكاملة في كل زمان ومكان .

أما الطبقة الثانية فهي لعلماء الدين الذين يهتمون بإبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس عن طريق التعليم والتربية ، وهم يُعرفون بعلماء الدين ومعلمي الناس حقائق الحياة ومطالبها في هذه الدنيا ، وجزاء الأعمال التي علمها الإسلام توخياً لمرضاة الله تعالى في كل من الدنيا والآخرة ، والتي ينالها العبد المسلم فوق ما يتصور ما دامت النوايا صادقة والقلوب صالحة .

إن طبقة العلماء والمعلمين والعاملين في مجال التعليم والتربية ونشر الدعوة إلى الله ممن أحبهم الله تعالى وأحلهم محل ورثة الأنبياء كما قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر " ، ومن ثم كانت مراكز التعليم والتربية موضع اهتمام هذه الطبقة المباركة ، فلم تألُ جهداً في إنشاء دور التعليم ومدارس العلم والمعرفة والجامعات الإسلامية على مستوى أرفع ، فهي بموادها التعليمية والتربوية تخرّج أجيالاً من أهل العلم والدين ممن يتميزون بالاعتدال وبالجامعية المغبوطة ويتحملون مسئولية التعليم والتربية ونشر التوازن بين الحياة والمجتمع في جميع الشئون والظروف وفي مناحي العلم والدين .

ورغم أن المعارضين للإسلام ومناوئي الأمة المسلمة لم يقصروا في إحباط قوى طبقة العلماء والمربين ، وكسر شوكتهم وهمتهم ، وإضعاف وسائلهم وإمكانياتهم ، ولم يرضوا إلا بتجريد الشباب المسلم عن جوهرة

التعليم والتربية ، ولكن الله سبحانه كتب لهم الفشل والإخفاق في كل ما أرادوه من شر ، وما أثاروه من فتنة ، ذلك لأنهم عرفوا بكل دراسة وثقة أن تجريد هذه الأمة هو السلاح الوحيد للقضاء على هيبة الإيمان وقوة التأثير التي يتميز بها المسلم المؤمن في كل مناسبة ويغير بها الاتجاهات المضادة للإسلام وتعاليمه ، ومن ثم كان التركيز على اكتساب العلم والمعرفة من مهام المسلم ، وكان التبشير بأن (الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما صنع) من جوائز السماء في الأرض للقائمين بعملية التعليم والتوجيه الديني .

ولا ريب أن هذه الطبقة الممتازة تمنح المجتمع المسلم ميزة لا يساويها ما يتبجح به أهل الحضارات الزائفة والمدنيات البائدة في شيئ ، يقول الله تعالى : (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ) ، وسوف لا تنجح جهودهم الفاشلة في وقف نشاط هذا النوع بين طبقة العلم والعلماء بمشيئة الله تعالى .

وهناك طبقة الجماهير من المسلمين ممن يعيشون في المجتمعات المسلمة والمجموعات البشرية ، وهم في معظم الأحوال يكتفون من الإسلام بما يرون ويسمعون ولا توجد فيهم رغبة أكيدة لفهم الإسلام وتعاليمه ، ولا يهتمون بالزيادة على ما حصل لهم من تعارف ديني ، بمجرد رؤيتهم اساليب الحياة التي يعيشها الخاصة والعامة من المسلمين حولهم ، وقد يوجد فيهم عدد ممن يتمتعون برغبة صادقة في زيادة عملهم بالدين وتعاليمه فيحترمون العلماء ويزورونهم بالمناسبات ، ويتصلون بهم عن طريق التربية الدينية ، ويحاولون أن يمثلوا إسلامهم في نطاق ما فهموه وقد ينحصر عملهم الديني في بعض الظواهر الشكلية ، ولا يخطر ببالهم ما يعود عليهم من حقوق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وحقوق العباد والبلاد ، ولا يقيمون وزناً للأعمال التطوعية وخدمة المشاريع الدينية ، بل ويقتنعون بعيش رتيب ولا يرون فوق ذلك شيئاً .

أما طبقة الأميين من الجماهير والعائشين في بيئات ورث أهلها أشكالاً من الدين أو ورثوا لفظ الإسلام والمسلم من أفراد متجاورين فيما بينهم من غير شعور بما يعود عليهم من مسئولية دينية أو خلقية ، لا يختلف وضعهم عن أوضاع الطبقات المتحررة من جميع الصفات الإنسانية ، وقد لا يكون فيهم شعور بمعنى الإنسان ، فإذا بهذه الطبقة الكادحة

المسكينة التي تعيش الإسلام لفظاً فحسب ، ولا تبالي بما إذا صدرت منه أمور لا تمت إلى الإنسانية في شيئ ، وهي لا تحفل بالمعاصي التي تؤدي إلى سخط الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويثير غضبهما إلى آخر درجة ، إنما تواجه الواقع الذي يمهد الطريق إلى نزول عقابات عليها وبلايا من أهل الأرض الأقوياء ، ويسد في وجهها كل طريق للنجاة والفرار منها ، وهي تشمل المناطق التي تنتمي إلى المسلمين ولا تفرق فيها بين أصحاب المعاصي والصالحين منهم ، ولا تفرز الصادقين من الكاذبين .

وإن لنا عبراً ودروساً في مثل هذه البيئات والمناطق التي يضم العصاة والدعاة وهم في محن ورزايا تستمر عليهم من غير توقف وانقطاع ، نرى فيها صورة صادقة للمثل القائل : المعاصي تجر المآسي .

وإن عالمنا المعاصر اليوم يعيش هذه المآسي في أشكال شتى ، وتشكيلات مختلفة ، كما أن التاريخ القديم الذي لا يخلو من هذه المآسي يعيد نفسه ، فكلما حاد الإنسان عن طريقه وولّى وجهته نحو معصية دون معصية ، واختار طرائق الخضوع أمام النفس ، وفوض زمامه إلى شياطين الإنس والجن وقع هنالك من الفساد والدمار ، ومن سفك الدماء وقتل الأبرياء ، ما لم يكن في الحسبان .

أمامنا اليوم انتهاكات كبيرة لحرمة مسلمي بورما الروهينغا الذين يتعرضون للمجازر والمذابح والإبادة الجماعية التي أسفرت عن تقتيل وتحريق وإصابة آلاف مؤلفة من مسلمي الروهينغا ، وقد عبر عن ذلك الأمين العام للأمم المتحدة (بالتطهير العرقي) .

ويواجهنا الآن سؤال عن مثل هذه الأحداث الوحشية والتطهيرية التي يعيشها العالم البشري في بلد دون بلد وفي مكان دون مكان ضد المسلمين العزل ، ما هو السبب في ذلك ؟

أرجو أن يقرع هذا السؤال " المتواضع " آذان زعماء وعلماء الأمة والملة ، وينال رداً عليه في ضوء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وشهادات التاريخ الإسلامي .

والله لا يضيع أجر المحسنين .

سعيد الأعظمي الندوي
١٤٣٨/١٢/٢٥هـ
٢٠١٧/٩/١٨م

التوجيه الإسلامي

المجتمع الإسلامي : حدوده وآدابه

في ضوء سورة الحجرات

(الحلقة الأولى)

العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب : محمد فرمان الندوي

وردت في سورة الحجرات آداب وقواعد للمسلمين ، ليعيشوا حياتهم وفق الشريعة الإسلامية ، والحياة الإنسانية عبارة عن نوعين من العبادات : نوع هو الانقياد التام لله تعالى ، وامتثال أوامره ، ونوع آخر هو مراعاة حقوق وآداب فيما بين الناس ، وحسن التعامل مع الإخوة ، وإكرام كل صغير وكبير ، وأداء حقه ، والسرية في كل شيئ ، وعدم إفضاء الكلام إلى أحد بدون روية ، لأن بعض الأحيان تظهر له نتائج سيئة ، لأن هذا الكلام يكون معاكساً للواقع .

عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم :

فأول شيئ هو أن يكون تعامل المؤمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منفرداً من التعاملات الأخرى ، وقد أمر بذلك الصحابة رضي الله عنهم ، لأنهم كانوا يرون كل حين وآن النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمر القرآن الكريم أن يكون سلوكهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم متميزاً بالنسبة إلى الآخرين ، وأن يختاروا أسلوباً حسناً ، ولا يتقدموا بالكلام أمام النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، وليكن على ذِكر وذُكر منهم أنهم أمام نبي ما زالت صلته بالسماء وطيدة ، ينزل عليه الوحي ، و ينزل عليه كلام الله القرآن ، فهذا الكلام السماوي يصل إليه مباشرة ، ولا يصل إلى غيره من الناس .

شعائر الله تعالى :

يتحدث الإمام الدهلوي رحمه الله تعالى عن عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : " ومعظم شعائر الله أربعة : النبي والكعبة

والصلاة والقرآن [1] ، هذه الأشياء الأربعة فاقت بها الأرض على السماء ، وإلا كانت هذه الأرض حقيرة أمام السماء ، وإذا نزل شيئ سماوي على الأرض لا تتحمله ، كما أن الحجر الثقيل اذا وُضع على التراب ساخ به ، أو جاء خشب أمام الحديد ، فلا قيمة له ، كذلك كانت هذه الأرض تافهة وضعيفة أمام السماء ، فأول هذه الأشياء الأربعة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويأتي في شعائر الله تعالى احترام الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى خصه بنفسه ، وقال : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [2] ، يعرف بهذه الآية مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى في موضع آخر مخاطبا المسلمين : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً [3] .

جعل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أكمل إنسان ، كما يكون هناك نموذج ومثال ، يدرك به الإنسان حقيقته ، ويتفكر كيف يحاكيه ويقلده ، كذلك جعل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أعلى نموذج في الإنسانية ، فإذا أراد إنسان أن يكون خير الناس سيرة وخلقاً ، فعليه أن يقلده وينهج منهجه ، ويعمل بسنته ، فيكون محبوباً عند الله ومقرباً لديه ، لأن الله تعالى آثر شخصيته لنفسه .

شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم :

وبما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من شعائر الله تعالى ، فكان احترامه والعمل بسنته وامتثال أوامره وإبداء عواطف الحب له من واجباتنا الأساسية ، و ورد عن حبه صلى الله عليه وسلم أن إيمان الرجل لا يكون كاملاً ما لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم أحب لديه من الوالد والولد والأولاد ، ويجب أن يكون حب الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من حب الوالدين ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين [4] .

وقد عرفنا من دراسة سير الصحابة رضي الله عنهم أن صحابياً حينما سُئل وقت استشهاده : أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك ؟ قال : ما أحب الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة

---

[1] حجة الله البالغة : ج ، ص ٧٠ ، طبع في المطبع الأشرفي الواقع في بلدة ديوبند (الهند)
[2] آل عمران : ٣١ .
[3] الأحزاب : ٢١ .
[4] صحيح البخاري : ١٤ .

تؤذيه وإني جالس في أهلي [1] ، هكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يحبون النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطالب من جميع أفراد الأمة المحمدية بمثل هذا الحب ، ولا يكون مثله إلا لله ، لا للوالدين ولا للأولاد ولا للمال والمتاع ، ولا لأي شيئ آخر ، ولا يكون لأحد سوى النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن حب النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان كاملاً ، عمل الإنسان بأسوته ، واعتبر كل جزء من حياته حسناً .

مقتضى الإيمان الكامل :

يحتاج كل مسلم اليوم إلى أن يحب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستعرض حبه ، ولا يقدَّر هذا الحب بالقول فقط ، بل يقدر إذا وُضع إزاءه شيئ ، وقد يقع حب منافع الدنيا وأموالها وأمتعتها في قلب إنسان موقعاً ، يخل به أمر الدين ، فنهى الله سبحانه عنه ، وقال : إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِنْدَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ [2] ، والفتنة لغة : أمر يصرف الإنسان عن الصراط المستقيم ويُلهيه ، أي أن يباشر الإنسان الخطأ بكل شوق ، ويبلغ حبه لشيئ مبلغاً يرتكب فيه جريمة ، ولكن إذا كان حب النبي صلى الله عليه وسلم في قلب رجل كما هو المطلوب ، بحيث لا يكمل إيمانه ، فلا يمكن أن يعصي الله تعالى رغم عوائق وحواجز كثيرة ، لأن الإنسان إذا أحب أحداً فلا يخالفه في أمر ما ، ولا يكتمل حب النبي صلى الله عليه وسلم إلا بكمال الإيمان والعمل بالشريعة عملاً صادقاً .

شعائر الله الأخرى :

والشعيرة الثانية هي بيت الله الحرام ، الذي له صلة بالسماء ، وينزل فيه النور من السماء ، وضع الله تعالى فيه قوة يستطيع أن يحمل علاقته بالسماء ، والشعيرة الثالثة الصلاة التي هي معراج المؤمنين ، والشعيرة الرابعة القرآن الكريم ، الذي تحدث الله تعالى عنه : لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ [3] ، لأنه لا يتحمل ثقل هذا الكلام ، ومن فضل الله تعالى ورحمته أن كلامه المبارك نزل تدريجياً في قالب الكلمات التي حملها الإنسان ، ولو كان نزوله بدون واسطة كان حمله صعباً ، أنزل الله تعالى هذا الكلام أولاً بواسطة

---

[1] تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص : ١٣١ .
[2] التغابن : ١٥ .
[3] الحشر : ٢١ .

جبرئيل عليه السلام ، ثم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبهاتين الوسيلتين وصل هذا الكلام إلينا .

عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [1]

اتضح مما مضى أن شأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس كعامة الناس ، ولا يجوز أن يعتبره أحد مثله ، ولا يجوز كذلك أن يعتبره إلهاً ، بل هو إنسان ، لكنه يمتاز عن عامة الناس بأن له علاقة خاصة بالسماء لا يصل إليها أحد ، فلا بد أن يُدرك عظمته كل إنسان ويحترمه ، ويعتقد أنه أصغر منه بكثير ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم على درجة عالية من الفضل والشرف ، لذلك أمر المؤمنون في أول سورة الحجرات أن لا يتقدموا من بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يروه مثلهم ، ورد في هذه الآية كلمة : " ورسوله " ، وهي تدل على أن الله جعله رسولاً ، وقد أكرمه بهذه السعادة ، فكانت له هذه المكانة العالية ، فكأن احترامه هو احترام الله تعالى ، وأصل الاحترام هو لله تعالى ، ويتصل به كل شيئ له صلة بالله تعالى ، فالأشياء التي لها صلة بالله يأتي في مقدمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجب احترامه في كل حال ، ولم يحصل أحد غيره على هذه السعادة ، وجاء ضمن مراعاة مقتضيات عظمة النبي صلى الله عليه وسلم : " واتقوا الله " ، ذلك لأننا إذا لم نُكمل متطلبات العظمة ، كان ذلك مكروهاً عند الله تعالى ، ونقع نحن في المعاصي والمنكرات ، ونكون ممقوتين لدى الله تعالى (أعاذنا الله من كل سوء) ، فلا يحالفنا شيئ من الدنيا والملائكة أو أحوالنا الشخصية ، غير أن الله تعالى يمكن أن يمهلنا ، كما أنه وفر لكل رجل فرصاً في الحياة الدنيا أن يقوم بعمل يرضي الله ورسوله ، فحياتنا هذه فرصة سعيدة للإنابة إلى الله تعالى ، لذلك ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة : اتقوا الله ، واختاروا طريق الحذر والحيطة في الأمور التي تنتمي إلى الله تعالى ، وعظموها ، لئلا تضركم وتخدش أحوالكم .

فكما أن الإنسان يكون في الحياة العامة في بيته ، بحيث لا يعظم ولد أباه حق تعظيمه ، لأنه يخالطه كل وقت ، ويكون الإنسان بعد زيارة كثيرة ولقاء متكرر غير متكلف ، كذلك كان الصحابة الذين يحظون دائماً برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يمكن أن لا

[1] الحجرات : ١ .

يعظموه ، ويراعوا حقه ، وقد صدر من بعضهم خطأ أحياناً ، فجاء في القرآن بكل صراحة : يَأَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُواْ لا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَى ٱللَّه وَرَسُوله وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إنَّ ٱللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ ، أي لاَ تقدموا أنفسكم بين يدي الرسول ، بل اعتقدوها صغيرة ، ولا ترفعوا أصواتكم في التعامل معه والتحدث إليه ، ثم أُمر لهم بالتقوى ، ويكون هذا العمل للمسلمين مبعث غضب شديد ، لأن الله تعالى لا يحب أن يعامل رجل رسوله صلى الله عليه وسلم الذي خصه الله تعالى بنفسه ، واختاره لكي يعامل معه معاملة الأصدقاء ، ولا يجادل معه أو يتدخل في شئونه .

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وواجب المؤمنين :

وقد كان من رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه مع الناس أن أحداً إذا أساء إليه فلا ينتقم منه ، أو شدد عليه فلا يقول له شيئاً ، حتى إذا دعا الناس إلى طعام ، فأتوا إليه قبل الموعد ، وجلسوا عنده ، واشتغلوا معه بالكلام الذي كان مبعث إيذائه وأهله ، فلا يتكلم عنه شيئاً ، بل يصبر ، قال الله تعالى بكل صراحة في القرآن : يَأَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبىِّ إلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلَىٰ طَعَام غَيْرَ نَاظرينَ إنَاهُ وَلَـٰكنْ إذَا دُعيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإذَا طَعمْتُمْ فَٱنتَشرُواْ وَلاَ مُسْتَأْنسينَ لحَديث إنَّ ذَٰلكُمْ كَانَ يُؤْذى ٱلنَّبىَّ فَيَسْتَحْيى منكُمْ وَٱللَّهُ لاَ يَسْتَحْيى منَ ٱلْحَقِّ [1] ، وقد أكد الله تعالى تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم في مواضع كثيرة ، لأن النبي ليس إنساناً عاماً ، بل خصه الله تعالى بذاته ، فحصل له من الله أمان ، وصار هو لله تعالى ، وأصبح من أخص عباده ، فإذا آذاه أحد يمقته ولا يحبه ، بحيث إن الله جعله من أحب عباده وأخصهم ، ولكن الإنسان يعتبره صديقاً أو عزيزاً .

وجاء في مقطع الآية : إنَّ ٱللَّهَ سَميعٌ عَليمٌ . أي أن أحداً إذا عمل بالخداع في مراعاة متطلبات عظمة النبي صلى الله عليه وسلم فليس ذلك ممكناً ، لأن الله خبير بذات الصدور ، وإذا أحب رجل النبي صلى الله عليه وسلم بإخلاص النية معترفاً بعظمته كان الله تعالى مطلعاً عليه ، وإذا عظم رجل النبي صلى الله عليه وسلم بكلماته وأصواته كان الله به عليماً ، فطلب منا وأوجب أن تكون قلوبنا مفعمةً بعظمة رسول الله تعالى وحبه صلى الله عليه وسلم ، وأنه ذو قدسية واحترام ، فلن نعمل معه معاملة المساواة ، لأن الله يعلم جميع نشاطاتنا ويطلع على أعمالنا كلها ، وهو سميع عليم .

(للحديث صلة)

---

[1] الأحزاب : ٥٣ .

نماذج تربوية من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

الأستاذ صفاء الدين محمد أحمد*

إذا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى والأصل الأول من أصول التربية الإسلامية ، فان السنة المطهرة وأقوال الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وأفعاله هي التطبيق العملي لكل ما جاء به القرآن الكريم ، فالسنة هي الشارحة وهى المفصلة لكل مجمل جاء به القرآن الكريم . والرسول صلى الله عليه وسلم هو النموذج وهو القدوة ، وهو الأسوة الحسنة .

من هنا حفلت حياة النبي صلى الله عليه وسلم بصور ومشاهد ، ومواقف وأحداث تقدم للبشرية المنهج القويم . والسلوك المحكم ، التي تذوب أمامه كل تلك المشكلات التي تواجه المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، سواء منها وحدة المجتمع الإسلامي أو المنهج المستخدم ، أو التطبيق التربوي أو السلوك العام ، أو العلاقات الإنسانية . . وغيرها .

وسنقدم فى السطور الآتية بعضاً من تلك النماذج لتكون خير هاد للمجتمع الإسلامي عامةً ، وللمربين والآباء على وجه الخصوص :

احترام الإسلام للعقل :

العقل بما أوتي من قدرة يستطيع أن ينسق المعلومات وينظمها ويضع العلاقة بينهما ، كما يبحث عن الأسباب والمسببات حولها ، إلا أن فكر الإنسان وعقله ، والموهبة التي منحه الله إياها من القدرة على التفكير تأتي تحت باب الاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص من الكتاب والسنة ، وفيما لا يتعارض عن أصل العقيدة ، والإسلام قد اختص قوماً بالحكمة واختارهم الله سبحانه وتعالى من بين سائر خلقه ، قال تعالى : (يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً)(البقرة : ٢٦٩) والحكمة هي " لباب كل خير " بحيث إن الانحراف عنها ، أو التحريف

* باحث وأستاذ في الأزهر الشريف ، مصر ، محافظة الشرقية .

فيها ، أو زخرفتها بشبهة من الرياء : خروج عن رحاب الجادة ، ودخول في مزالق الباطل [1] .

وبهذا المفهوم نجد انفراد الإسلام بالنظرة التكاملية للإنسان ، بينما نرى كثيراً من الفلاسفة يقصرون نشاطهم على جوانب نظرية جدلية ، ويبتعدون عن ميادين الصراع فى قضايا المجتمع [2] .

إذا كان الحال والشأن كذلك ، فإن أنبياء الله ورسله هم أهل الحكمة ، والذين اختارهم الله تعالى من بين سائر خلقه ليبلغوا رسالات ربهم ، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتمهم ، ففكره ومنهجه ، واجتهاده والأسس المنهجية والأساليب التربوية التي بيّنها ، وقضاؤه في الأمور كلها ، إنما هي نماذج يجب أن يقتدي بها التربويون ، وأن يعيها الآباء والمربون ، وأن تصبح فكراً مطبقاً ومنهجاً يعمل به ، من هنا فدراسة السنة المطهرة كنموذج ، يجب أن يقدم لطلاب المدارس كإطار تطبيقي يسيرون على نهجه ويتبعون خطواته .

قوة الإرادة :

إذا كان العقل هو القوة المدركة التي يستطيع الإنسان بها أن يدرك ويعقل ، ويميز الخير من الشر ، فإن الإرادة : هي القوة العاصمة التي يستطيع بها أن يضبط حركاته وسكناته ، فلا يقدم ولا يحجم ، ولا يفعل ولا يترك ، ولا يتكلم ولا يصمت إلا على هدى العقل وإرشاده ، لا على دفع الغريزة وانطلاقها ، فالإنسان بهاتين القوتين ليس عبداً لغرائزه ، بل هو ملك عليها ، يحكمها ولا تحكمه ، ويوجهها ولا توجهه [3] .

هذا ، ولقد توافرت هذه المعاني بكل دقة في الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن قوله إلا ذكراً ، ولم يكن صمته إلا

---

[1] أوضح التفاسير ، لابن الخطيب ، ص : ٥٧ .
[2] في التربية الإسلامية ، لمحمد علي المرصفي ، ص : ١٢ .
[3] صور من حياة محمد ، لامين دويدار ص : ٦٢ .

فكراً ، ولم يكن نظره إلا عبراً ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ . عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ)(النجم : ٣ –) .

يقظة الضمير :

الضمير هو : القوة التي لها اعتبارها بين قوى الإنسان ، لأنها قوة خيرة ، توجه دائماً إلى الخير ، وتنزع عن الشر ، وتهيمن على الإنسان في كل أحواله ، وتراقبه في كل أفعاله ، وتنزع به إلى الندم إن وقع في الإثم ، وتمعن في إيلامه وتبكيته إذا تمادى في الغواية ، وقلما خلا الإنسان من وخز الضمير مهما كان طبعه [1] .

هذا ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً يحتذي به في يقظة الضمير ، وكيف لا !! وهو الذي زوّده الله بالقوى الروحية التي تستمد قوتها من الله عز وجل .

التربية بالقدوة :

إذا كان الله عز وجل قد وهب الإنسان القوى الخيرة ، فهو سبحانه وتعالى قد تعهد الإنسان بالتربية ، كما يتعهد الوالد ولده ، ينشئه على خير ما يريد له من طباع كريمة وخصال حميدة ، وإذا كان الحال كذلك فإن مهمة الرسل عليهم السلام كانت أمثلة عملية في التنفيذ والتطبيق ليكونوا قدوة للناس في إقامة الحق ، ومجاهدة الشيطان ، فالرسل يعلمون الناس بأقوالهم وأفعالهم ، يعلمونهم كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى في إسعاد الخليقة .

هذا ، ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم قرآناً يدب فوق الأرض ، ومن أجل هذا نجد أن مظاهر الحكمة في المنهج القرآني إنه لا يفسر القيم بأمثالها ، إنما يفسرها بالأشخاص الذين يعملون بها ويستمسكون بأهدافها تأكيداً لأهمية التطبيق وقيمة القدوة [2] .

قال تعالى : (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱلْمَلآئِكَةِ وَٱلْكِتَابِ وَٱلنَّبِيِّينَ . . . .) (البقرة : ١٧٧) .

---

[1] ٤المرجع السابق نفس الصفحة .

[2] النبى صلى الله عليه وسلم أسوتنا الحسنة ، للسيد رزق الطويل ، ص : ٤٩ .

وهذا يوضح أن البر لا يقتصر على الإيمان فحسب، وإنما البر هو الإنسان المؤمن . من هذا المنطلق يتبين لنا أن القدوة لها قيمتها في التربية والتوجيه وفي النصح والإرشاد. . والعمل والتطبيق هما مظهران حقيقيان للإقتداء.

الإخاء :

لقد كان أول عمل يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم حينما وصل المهاجرون إلى المدينة المنورة هو : أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان المهاجري يقتسم أرض الأنصاري كما يقتسم ماله ، وأكثر من ذلك يطلق الأنصاري إحدى زوجتيه ليتزوجها المهاجري ، وصدق الله العظيم إذ يقول (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)(الحشر: ٩)

من هذا المنطلق فلا غرابة أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى ، خلال مراحل حياته كلها ، فقد كان يمثل الأخوة بكل معانيها ، يمثلها طفلاً وشاباً وشيخاً ، ووالداً وأخاً وزوجاً ، وجاراً ورفيقاً وصاحباً ، وجندياً وقائداً وفاتحاً ، ومهاجراً ومضطهداً ومطارداً ، وتاجراً وقاضياً وأخاً في السراء والضراء ، وهو خلال هذه المراحل لم يتغير من البداية للنهاية ، فهو مثال (الإنسان الكامل) توافرت فيه صفات السخاء والعفو والشهامة [1] .

الرحمة :

يقول الحق تبارك وتعالى : (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة : ١٢٨) ، ولقد كان النبي صلى الله علي وسلم يأبى أن يظهر في أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الرئاسة ، وكان صلى الله عليه وسلم يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم في حجره ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، وكان في بيته في مهنة أهله يخدم نفسه ، ويعقل بعيره ويقضى حاجة الضعيف

[1] صور من حياة محمد ، لامين دويدار ، ٦٢٧ .

والبائس والمسكين [1] .

وما أحوج رجال التربية في العالم المعاصر أن تتأسى بخلق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيكونوا رحمة في جميع أحوالهم مع طلابهم وزملائهم ، ومع المجتمع الكبير الذي يحتويهم .

الزهد :

لقد بلغ زهده صلى الله عليه وسلم إلى أن كان في فراشه الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف ، وإنه لم يشبع قط . ولم يطعم خبز الشعير يومين متتالين ، وكان السويق طعام أكلته الكبرى ، وكان التمر طعام سائر يومه ، وكان الثريد مما لا يكثر له ولأهله تناوله .

ولقد كان زهده في اللباس كزهده في الطعام . ولم يكن هذا الزهد من فرائض الدين فقد قال تعالى : (كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) (البقرة : ٥٧) ، وإنما أراد صلى الله عليه وسلم أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوة على الحياة ، قوة لا يتطرق إليها ضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاع أو مال أو سلطان ، وهو غاية الإخلاص والسمو [2] .

وبعد ، فنحن على يقين أن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، حينما تعيش في وجدان المسلم ، فسوف تكون له زاد وقوة دافعة إلى الخير ، وكيف لا ؟! ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الشخصية الوحيدة التي وضحت كل معالمها ، والتي سجل معاصروها كل أقوالها وأفعالها ، فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها .

وسجل حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، سجل كامل غير منقوص وسنته القولية والفعلية يتمم بعضها بعضاً ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو النبي الذي مارس بالفعل كل المبادئ التي كان يلقنها للناس ، ولن تجد في القرآن الكريم حكماً أو أمراً لم يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم [3] . (وصلى الله تعالى على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

---

[1] حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل ، ص : ٢٤٣ .
[2] المرجع السابق ، ص : ٢٤٥ .
[3] صور من حياة محمد ، لامين دويدار ، ص : ٦٢٧ .

الدعوة الإسلامية

الاستعمار الفرنسي وكفاح الشعب الجزائري

بقلم : الشيخ الطاهر بدوي الجزائري *

إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان . والشر جامح والباطل مسلح ، وهو يبطش غير متحرج ويضرب غير متورع ، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطَر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر .

وللصبر حد و للاحتمال أمد وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه . والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم ، ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد . وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان . وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته قال تعالى : " إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِنْ

* كبير علماء الجزائر .

مَّكَّنَّاهُمْ فِى ٱلأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلواةَ وَآتَوُاْ ٱلزَّكَواةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلأُمُورِ " . (الحج : ٣٨ – ٤١) .

الإذن بالقتال دفاعاً عن الحق وأهله حقيقة باقية ببقاء الدنيا ومن عليها ، حقيقة ضد كل طغيان وكل جور . وقد سمع شعبنا الجزائري الباسل هذا النداء مرات ولبى بما استطاع عبر ثورات عديدة وقفت بالمرصاد في وجه الاستعمار منذ القديم إلى أن حان الوقت الفاصل أول نوفمبر ١٩٥٤م . فقد التف حول قيادة رشيدة وقام كرجل واحد رغم ما تعرض له في الطريق من تضحيات جسام بالأرواح والأموال ليحرر الوطن المفدى من أيدي الغاصبين .

فثورة أول نوفمبر المباركة هي ثورة تحرير وتغيير جذري لكل هياكل الاستعمار ومؤسساته وسياسته وإيديولوجياته . لقد حررت هذه الثورة البلاد والعباد عن ربقة الاستعمار الغاشم ، واستعاد الشعب الجزائري حريته واستقلاله وأرضه وما فيها وما عليها من الخيرات والإمكانات الاقتصادية ومكنته بعد ذلك من تسيير نفسه بنفسه وإدارة بلاده وفتحت أمامه الأبواب على مصراعيها ليبني ويشيد مستقبله السياسي والاقتصادي والحضاري والثقافي ، ولم تتحقق هذه الثورة إلا على أشلاء مليون ونصف من الشهداء ، الذين التحقوا ابتغاء رضوان الله بالذين سبقوهم خلال الثورات السالفة .

وما فاز شعبنا بالحرية والاستقلال إلا أنه كان يدرك بحاله وسلوكه حقائق ثابتة ذكرها الله في محكم تنزيله قال عز وجل :

" لاَّ يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً . دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً " (النساء : ٩٥ – ٩٦) .

وهذه الدرجة يمثلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامهم في الجنة ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن في الجنة مأة درجة أعدها الله للمجاهدين

في سبيله ، وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض " . وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عن الجميع قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم : " من رمى بسهم فله أجر درجة " فقال رجل يا رسول الله : وما الدرجة ؟ فقال : " أما إنها ليست بعتبة أمك ما بين الدرجتين مأة عام " .

وهذه المسافات التي يمثل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم نحسب أننا اليوم نقدر على تصورها ، بعد الذي عرفناه من بعض أبعاد الكون حتى إن الضوء ليصل من نجم إلى كوكب في مئات السنين الضوئية (والضوء يقطع في الثانية مسافة ثلاث مأة ألف كيلومتر) وكان الذين يسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدقونه بما يقول . وقد سمع شعبنا نداء رسوله الكريم والحمد لله وامتثل لأمره ، لأن في دمه يجري حبّه وحب آله وصحابته ، وحب الحرية وحب الانقياد والخضوع لله دون سواه .

فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال ، مع تفاضل أهله في الدرجات وفق تفاضلهم في النهوض بتكاليف الإيمان ، فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والأنفس ، وهذا الاستدراك هو الذي نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين المتعاملين مع الظالمين ، إنما هي طائفة أخرى صالحة في الصف المسلم ومخلصة ، ولكنها قصّرت في هذا الجانب والقرآن يستحثها لتلافي التقصير ، والخير مرجو فيها ، والأمل قائم في أن تستجيب . وكم من عدو للثورة أصبح باشراقات في قلبه جندياً يشتاق إلى التضحية في سبيل الحق والواجب ، وكم من خائف من عواقب المعركة أصبح قائداً مغواراً يلقن العدو دوماً دروساً لا تنسى .

وما فاز الشعب الجزائري بالنصر على الاستعمار إلا أنه كان يعلم علم اليقين أن الحرية لا تعطى بل تؤخذ عنوة عن الغاصبين ، تؤخذ بالوحدة والصدق والوفاء والامتثال لمنهج الله تعالى . ويعلم أيضاً أن الجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة التي عاشتها الجماعة المسلمة الأولى بل لابد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . فأما أن يقدر لهم الغلب أو

يقدر لهم الاستشهاد فذلك شأنه سبحانه وذلك قدره المصحوب بحكمته . أما هم فلهم إحدى الحسنيين عند ربهم والناس كلهم يموتون عندما يحين الأجل . والشهداء وحدهم هم الذين يستشهدون ، أحياء غير أموات عند ربهم يرزقون . قال الله تعالى : " وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلَّذينَ قُتلُواْ فى سَبيلِ ٱللَّه أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عندَ رَبِّهمْ يُرْزَقُونَ . فَرحينَ بمَآ آتَاهُمُ ٱللَّهُ منْ فَضْله وَيَسْتَبْشرُونَ بٱلَّذينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بهمْ منْ خَلْفهمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ". (آل عمران: ١٦٩ – ١٧٠)

هناك نقط ارتكاز أصيلة في هذه العقيدة وفي منهجها الواقعي وفي خط سيرها المرسوم وفي طبيعة هذا الخط وحتمياته الفطرية التي لا علاقة لها بتغيير الظروف . وهذه النقط لا يجوز أن تتميع في حس المؤمنين تحت أي ظرف من الظروف ، ومن هذه النقط ، الجهاد . . . الذي يتحدث عنه الله سبحانه هذا الحديث ، الجهاد في سبيل الله وحده وتحت رايته وحده دون أي عصبية أو نزعة طائفية أو حزبية أو عرقية أو جنسية ، ودون أية نية استغلال عبيد الله لصالح طاغوت يحارب الله ورسوله ، وانتهاك حرماتهم أو استباحة دمائهم أو غصب أموالهم . . . فهذا حرام في حرام . . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " . وقال : " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يحقره " . وأحاديث كثيرة مستفيضة تحث على الأخوة في الله بعد العقيدة الصحيحة وتهذب علاقة المسلم بأخيه . . . فلا يفارق المسلم أخاه حتى يشيع جنازته ، فتشييع جنازة المسلم حق على أخيه كسائر الحقوق التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " إذا استنصحك فأنصحه وإذا استقرضك فأقرضه ، وإذا دعاك فأجبه وإذا عطس فشمته وإذا مرض فعده وإذا مات فشيعه .

إن انتصار ثورة نوفمبر ١٩٥٤م الجزائرية يعتبر كما قال الدكتور المؤرخ يحي بو عزيز في إحدى كتاباته : " مفخرة العرب والمسلمين جميعاً لأنها رفعت رؤوسهم عالية بعد أن أذلت عشرات السنين وإعادة الإسلام لمركزه ، وإشراقة على هذه البلاد بعد أن حاول الاستعمار الفرنسي القضاء عليه وتعويضه بالدين المسيحي النصراني الأوروبي ، وفي نفس

الوقت فإن هذه الثورة الجزائرية مفخرة إفريقيا كلها والأفارقة جميعاً ، لأنها هي التي أعادت الثقة لشعوبهم وزرعت فيها روح الأمل والحيوية والحياة الحرة وحفزتها على مسح غبار الغفلة والتخلف ودفعتها إلى العمل من أجل تحرير الوطن ، وطرد المستعمرين الدخلاء المستغلين . وتم ذلك لها فعلاً دون ضحايا كثيرة ودون وقت طويل على عكس الجزائر ، وليس من قبيل الصدف أن تختار الجزائر بعد ذلك كما كان لتصفية الاستعمار البرتغالي آخر استعمار أوروبي وأقدمه في إفريقيا ، وذلك عام ١٩٧٤م وما بعده " . . . وختم مذكرته بقوله : " إن ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م من الأحداث العالمية الكبرى في التاريخ المعاصر انعكست آثارها الحسنة والإيجابية على معظم شعوب العالم وخاصة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وتمثل تجربة رائدة لها في الكفاح الوطني ، وفي مجالات البناء والتشييد وفي المواقف البناءة والدؤوبة تجاه القضايا العالمية المعاصرة . وستبقى هكذا مثلاً رائداً طالما حافظت على مسارها وتمسكت بأهدافها الوطنية ، والتزمت بالوقوف دائماً إلى جانب القضايا العادلة كما هي عادتها " .

إن الاحتفال بهذه الذكرى العظيمة يعني لدى كل عاقل غيور على وطنه ودينه أن يهتم الجميع ، كل على حسب طاقته ودائرة نفوذه بإصلاح الأجيال الصاعدة وبتربيتهم تربية تربطهم بأصالتهم وتاريخ أمجادهم ، تربطهم بالعقيدة الصحيحة والخلق الكريم ، وتجعلهم يواجهون كذات واحدة حاجات العصر الحديث بكل دراية وصبر والتزام ، ويستدركون ما أهمله أسلافهم ، وعندئذ يفرح المؤمنون بالجيل المؤمن والمجتمع المسلم والأمة الصالحة ، وما ذلك على الله بعزيز .

جعلنا الله من أولئك الذين قال فيهم : " مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً " . آمين .

الحضارة العربية الإسلامية ومنهج استعادتها من جديد

بقلم : . د . محمود حافظ عبد الرب مرزا *

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد !

فقد بلغت الفنون الإسلامية أوج ازدهارها وتسيدها للذوق العالمي قبل أن تبدأ أوروبا إحياء فنونها وإبراز تفوقها وتطورها في العديد من الميادين العلمية والأدبية والفكرية تحت تأثير الاتصال بالحضارة الإسلامية ، فعندما بلغ المسلمون ذروة الكمال في مختلف مجالات الحياة وعلى الأخص مجال العلوم والصناعة والتجارة ، كانت الدول الأوروبية غارقة في ظلام حالك ، وكانت تعيش حالة ركود وخمول ، وترتع في غياهب العصور الوسطى ، وترزح تحت وطأة عصور الظلام ، مما كان سبباً في الإطلاق على تلك العصور بالقرون المظلمة . وكان من الطبيعي أن تتأثر فنون عصر النهضة الأوروبية بالفنون الإسلامية التي كانت آنذاك علامة للفن الرفيع والترف الأنيق وكانت تنعم بمسيرة التقدم والرخاء حتى وصلت إلى أعلى المستويات الحضارية ، وبلغ العرب المسلمون في مجال العلم شأواً كبيراً ، وترقوا في مدارج العلم والمعرفة مستندين إلى التجربة والملاحظة .[1]

ومن الملاحظ أن الحضارة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية؛ فالفكر العربي الإسلامي ، والثقافة العربية الإسلامية ، سلسلة متّصلة الحلقات ، امتدّت من الحضارات القديمة ، من مصرية ، وآشورية ، وبابلية ، وصينية ، إلى الحضارة الإغريقية والإسكندرية ، إلى العصر الإسلامي الذي تأثّر

* أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية ، جامعة الله آباد ، الهند .

[1] عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ص ١٣٤ – ١٣٥ .

علماؤه بمن تقدّمهم ، وأثّروا بدورهم فيمن لحقهم من علماء النهضة الأوروبية الذين انهمكوا في قراءة أعمال العلماء العرب في كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى .

لقد كان للحضارة الإسلامية أثر كبير في الحضارة الغربية في مختلف المجالات ، وبالأخص في مجال الفلسفة والعلوم فقد انتقلت الفلسفة وكثير من العلوم كالطب والفلك إلى الغرب عن طريق الحضارة الإسلامية ، وترجم الغرب كتباً كثيرة للعرب والمسلمين ، بل كانت الجامعات الأوروبية تدرس كتب ابن سينا والرازي وغيرها طيلة ستة قرون ، في وقت كانت أوروبا تعيش حالة من الظلام والجهل والخرافات والأوهام ، ففتحت أوروبا عينها للعلم عن طريق الحضارة الإسلامية .

وشهد كثير من الكُتَّاب الأوربيين أنه عندما كانت الدول الأوروبية تفتقر إلى شوارع أو طرق ممهدة للسير عليها ومرور المركبات ، وكان من المستحيل مواصلة السفر في طرقاتها في الليل لعدم وجود الإضاءة والأنوار وكثرة الحفر والمطبات في الطرقات ، فإن شوراع أسبانيا وغيرها من البلدان الإسلامية كانت واسعة وممهدة ومنورة حتى إن المركبات كانت تسير عليها بكل سلامة وأمان ، ويواصل المسافرون سفرهم في الليل كما في النهار . واعترف الكتاب الأوروبيون أيضاً أنه عندما كانت عدد من المدن الإسلامية مثل غرناطة وقرطبة وإشبيلية تنعم بسلسلة واسعة من المكتبات التي كانت تحتوي على أكثر من آلاف الكتب والمخطوطات ، وكانت أسواقها ممتلئة هي الأخرى بمحلات عديدة لتجليد وتغليف الكتب ولوازمها ، فإن أوروبا كانت حينذاك تسعى إلى تعلم الحروف الأبجدية ، حيث لم تكن فيها أية مصنوعات وكانت تفتقر إلى مراكز الثقافة أيضاً .

لقد بدأ عصر الحضارة والتطور في أوروبا عقب احتكاكها وتأثرها وتواصلها مع الحضارة الإسلامية ، حيث بدأ عصر النهضة فيها عقب القرن الخامس عشر الميلادي . ومن أهم أسباب نهضة الدول الأوروبية وتسابقها إلى اكتساب العلوم والفنون عقب فترة خمود طويلة هي إدراج الكتب العلمية والطبية وغيرها من العلوم في مناهج التعليم ،

وترجمتها وابتعاث بعض الأوروبين إلى أسبانيا . والاحتكاك بالحضارة الإسلامية بسبب الحروب الصليبية مع الفلسطينيين وغيرهم ، حيث إن الحروب الصليبية قد امتدت زهاء قرنين من الزمن احتك أثناءهما الغرب بالشرق وليس من قبيل المبالغة القول بأن الحروب الصليبية كانت واحدة من أبرز العوامل التي لعبت دوراً ملموساً في نقل حضارة الإسلام إلى قارة أوروبا وشعوبها .

حقاً لقد طال عهد الجهالة في أوروبا وعم تأثيره ولم يبدأ فيها الميل إلى العلم ، إلا في القرن الحادي عشر عندما يمم عدد من الأوروبيين شطر العرب لينهلوا من علومهم .[1] ولم يتم أول اتصال للأوروبيين بالعرب في العصور الوسطى خلال فترة الحروب الصليبية فحسب ، بل إن صلة الأوروبيين بالعرب ترجع إلى دخول العرب إلى الأندلس واستقرارهم في صقلية وسواحل جنوب إيطاليا وعبر التبادل التجاري بين المسلمين وتجار جنوه والبندقية وبيزا .[2]

إلى ذلك ، أدّى فساد الكنيسة الكاثوليكية ، وابتعاد رجال الدين عن القيم المسيحية وتأثر المسيحيين بالإسلام إلى نشوء حركة دينية إصلاحية احتجاجية ، عُرفت بالبروتستانية ، على يد بعض رجال الدين مثل مارثن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦م) بألمانيا ، وجون كالفن (١٥٠٩ – ١٥٦٤م) بجنيف ، وملك إنجلترا هنري الثامن (١٥٠٩ – ١٥٤٧م) . والفضل يعود إلى مارثن لوثر في إثارة حب التطلع والمعرفة لدى الأوروبيين ، حيث قام بتأسيس فرقة متمردة للبروتستانتية كانت تدعو إلى إجراء وتنفيذ الإصلاحات في الديانة المسيحية ، وكان راهباً وقسيساً ، استهجن ورفض الديانة المسيحية الرائجة ، وانتقد ابتعاد رجال الدين عن القيم المسيحية ، واهتمامهم البالغ بجمع الأموال عن طريق بيع صكوك الغفران ، الذي كان يستغله المجرمون ، ويقومون بتقديم الرشاوي

[1] جوستاف لويون ، حضارة العرب ، ترجمة: عادل زعيتر ، نشر مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ص ٥٦٦ – ٥٦٧ .

[2] نادية حسني صقر ، العلم ومناهج البحث في الحضارة الإسلامية ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ١٣٥ .

للقسيسيين لأجل ضمان مغفرة ذنوبهم وخطاياهم وبالتالي الفوز بالجنة – على حد زعمهم ، حيث كانوا يرون أنهم يستحقون الجنة رغم انغماسهم في الذنوب والمعاصي . وهكذا ، فإن مارثن لوثر أطلق على تلك المغفرة بأنها باطلة ولا طائل منها . وكان متأثراً بالثقافة الإسلامية إلى حد كبير ، يدعو إلى أن الإيمان بالله وحده هو سبيل التخلص من جميع الرذائل السائرة . كما عمل على شرح الكتاب المقدس لنشر الفهم الصحيح للديانة المسيحية ، حتى أطلق عليه عدد من المسيحيين وخاصة من طبقة الأُرْثُوذُكْسية بأنه مسلم يُخفي إسلامه ، وسعى مارثن أيضاً إلى إنهاء العديد من المناسك الرائجة والبدعات السائرة . وبالتالي فإن حركة الإصلاح الديني في الدول الأوروبية هي الأخرى بدأت نتيجة الاحتكاك بالتعاليم والثقافات الإسلامية .

ومما يعترف به الأدباء والمؤرخون والكتاب الغربيون هو أن المسلمين كانوا ذوي ثقافات وحضارات واسعة ، إذ أن الأوروبيين لم يكن لهم علم ولا دراية حتى بأبسط الأشياء مثل الصابون الذي يتم استخدامه لأجل تنظيف الجسم من الأوساخ والنجاسة ، وقد أخذه الأوروبيون من المسلمين ، حتى بدأوا يطلقون عليه اسم " Soap " ، فقد كانوا كريهي الرائحة بشكل لا يطاق من شدة القذارة ، وكان المسلمون هم أول من اخترعوا الصابون وقدَّموا فرشاة الأسنان في صورتها المستهلة إلى أوروبا . وكان عدد كبير من المسيحيين يشتركون في الحروب الصليبية ، لأنهم كانوا يرون بأنها حروب مقدسة ، وعندما رأوا وشاهدوا بأم أعينهم الحضارة والثقافة الإسلامية من قرب أدركوا مدى تخلفهم ، فبدأوا يقتدونهم بنفس الصورة التي يقتدي بها المسلمون الأوروبيين في عصرنا هذا . فقد كان المسلمون بشكل بارز متفوقين عليهم في مجال صناعة الأسلحة الثقيلة والمعدات الدفاعية ، الأمر الذي كان يجبر القوات الصهيونية على الهروب من ساحة المعارك عقب سقوط القنابل على رؤوسهم ، ومن ثم اللجوء إلى ملاذات آمنة بغية الحفاظ على أرواحهم ، ومن ثم ينشغل القسيسيون في الدعاء لأجل نصرتهم ، والتي لم تكن تجن غير الحصرم .

لقد اكتسب اليونانيون شهرة فائقة في مجال العلوم والحكمة ،

ووصلت كافة الكتب اليونانية إلى الأوروبيين عن طريق المسلمين ، حيث قام المسلمون بترجمة كافة العلوم اليونانية إلى اللغة العربية في بداية الأمر ، سواء كان علم الرياضيات أو علم الفلك أو العلوم الطبيعية أو الكيمياء وحتى الأحياء والعلوم الطبية ، ومن ثم استفاد منها الأوروبيون بشتى الطرق وقاموا بنقلها إلى اللغة الإيطالية وغيرها من اللغات الأوروبية ، وظلت هذه التراجم تدرس في عدد واسع من الجامعات الأوروبية ، وبعد القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو قرن تأسيس المطابع ، بدأت الكتب العربية تطبع مراراً وتكراراً ، مثل كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وكتاب الحاوي في الطب لأبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم الزهراوي ، وكتاب الكليات في الطب لابن رشد ، وكتاب التيسير في المداواة والتدبير لابن زهر ، وكتاب المناظر لابن الهيثم ، وغيرها من الكتب التي وصلت إلى أيدي الأوروبيين ، حيث وصل عدد طبعات بعض الكتب المطبوعة إلى خمسين طبعة .

الجدير بالذكر هنا أن العرب عندما بدأوا في ترجمة المؤلفات اليونانية لم يأخذوها كقضايا مسلم بصحتها بل ناقشوها وراجعوها ونقدوها وأضافوا إليها ، فعلى سبيل المثال ، خالف إبن سينا كلاً من أرسطو وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان في كثير من الآراء ورأى بأن الفلاسفة لا يختلفون عن سائر البشر في الوقوع في الأخطاء ، ويجب أن تعرض أفكارهم على المنطق والعقل ، فضلاً عن اهتمامه البالغ بالتجربة والملاحظة ، في حين اعتمد ابن رشد على المنهج العلمي في كتاباته عندما دعا بضرورة النظر في كتابات الأمم السابقة ، فما كان موافقاً للعقل ومؤيداً بالبرهان يتم قوله ، وأما ما كان منافياً للبرهان والدليل ينبه عليه ويحذر منه .[1] كما نجد أن ابن الهيثم قد صحّح نظرية اقليندس وبطليموس في حدوث الرؤية إذ زعما أن العين ترسل إشعاعات إلى الشيئ المنظور تمكن من رؤيته ، بينما رأى ابن الهيثم أن الأجسام المنظورة هي

[1] سعيد عبد الفتح عاشور ، المدنية الإسلامية ، الآنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٨٨ – ٨٩ .

التي ترسل إشعاعات إلى العين .[1]

ومن هذا المنطلق ، فإن كل من يدّعي بأن العرب لم يقوموا إلا بنقل المؤلفات اليونانية والرومانية ، دون إضافة شيء جديد إلى تلك المؤلفات ، حتى انتقلت إلى أوروبا ، فإن مثل هذا الإدّعاء لا صحة له على الإطلاق ، والواقع هو أن العرب لم يكونوا مجرد ناسخين بل مارسوا أساليب النقد والتحليل وفق المنهج العلمي على كتب اليونان والرومان وذلك بالتصحيح والتنقيح والزيادة وفق مقتضى الضرورة .

كما كان للمطابع دور كبير ومهم في نهضة أوروبا ، لأنه إن لم يتم الاهتمام بالأوراق في البلدان الإسلامية من قبل لما لعبت المطابع دوراً كبيراً في هذه النهضة . وبما أن المسلمين كانوا رواد العلم ، فإنهم اهتموا بالأوراق لتدوين الكتب والحفاظ عليها منذ ذلك الحين .[2] حتى أصبحت صناعة الأوراق تعم معظم أرجاء الدول الأوروبية وتصبح بمثابة صناعة منزلية . وهكذا ، يوجد عدد كبير من الكتب والمخطوطات العربية في عدد من المكتبات الأوروبية إلى يومنا هذا . وهذا ما يمكننا أن نلاحظه في أبيات شاعر الإسلام ، العلامة محمد إقبال ، والتي أنشدها عندما رأى الكتب والمؤلفات التي ألفها المسلمون في المكتبات الأوروبية ، فتقطع قلبه وصرخ منشداً ما يلي :

اگر چاہوں تو نقشہ کھینچ کر الفاظ میں رکھ دوں
مگر تیرے تخیل سے فزوں تر ہے وہ نظارا

(يمكنني إذا شئت أن أعبر عن هذه المناظر والرؤى ، إلا أن تلك المناظر ستفوق تصورك الخيالي) .

تجھے آباء سے اپنے کوئی نسبت ہو نہیں سکتی
کہ تو گفتار وہ کردار ، تو ثابت وہ سیارا

(ليس لك أي شبه بأجدادك لأنك تتبادل أطراف الحديث وهم

[1] لويس يونغ ، العرب وأوروبا ، ترجمة : ميشيل أزرق ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص ٩٩ .

[2] جلال مظهر ، الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي ، مركز الشرق الأوسط ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، ص ٤٠ .

كانوا أصحاب خلق وعمل ولأنك ثابت لا تتحرك وهم كانوا على دربهم سائرين) .

گنوادی ہم نے جو اسلاف سے میراث پائی تھی
ثریا سے زمیں پر آسماں نے ہم کو دے مارا

(لقد ضيعنا تراث أسلافنا التي ورثناها فرمت بنا السماء من أعلى الثريا إلى الأرض) .

حکومت کا تو کیا رونا کہ وہ اک عارضی شے تھی
نہیں دنیا کے آئین مسلم سے کوئی چارا

(ما لنا نشتكي من دور حكوماتنا لأنه أمر مؤقت ، ولا مناص للدنيا من الدستور الإسلامي) .

مگر وہ علم کے موتی، کتابیں اپنے آباء کی
جو دیکھیں ان کو یورپ میں تو دل ہوتا ہے سی پارا

(ولكن تتقطع قلوبنا عندما نرى جواهر العلم المتمثلة في كتب آبائنا في أوروبا) .

ويظن العديد من المسلمين أن الكتب التي أشار إليها العلامة محمد إقبال في الأبيات السابقة هي ليست إلا كتباً دينية سرقها البريطانيون من دول المشرق والهند واحتفظوا بها في مكتباتهم ، إلا أن الأمر ليس كذلك ، بل إن الكتب والمخطوطات العربية التي سرقها البريطانيون كانت معظمها تدور حول علوم الطب والفلك وغيرها من العلوم العصرية . وهي تلك الكتب التي كانت تدرس في المدارس الأوروبية سابقاً ، وهي الكتب التي من جرائها شهدت الدول الأوروبية نهضتها وأفاقت من غفوتها .

كما لم يجحد العديد من المصنفين الكبار ، مثل المستشرق البريطاني توماس آرنولد ، وغيره من الكتاب الأوروبيين فضل المسلمين العرب واعترفوا بكل سعة قلب أنهم تعلموا الهندسة الحديثة من العرب وتخلوا عن الهندسة الرومانية التقليدية ، وبالتالي أصبح أساس العمليات (الفارمولات) الحسابية الأربعة المشتمل على الجمع والطرح والضرب والقسمة عاماً ورائجاً لدى أهالي الأندلس وبعدهم لدى أبناء الدول

الأوروبية . كما اخترع المسلمون الأَسطُرْلاب وهو جهاز استعملوه في تعْيين ارتفاعات الأجرام السماوية ، ومعرفة الوقت ، والجهات الأصلية ، حيث استطاعوا بفضله – وذلك في عام ١٠٩٢م – مشاهدة كيفية خسوف القمر . كما برعوا في بناء المراصد حيث بني أول مرصد في عهد الخليفة المأمون العباسي في بغداد ، كما بني مرصد آخر في مراغة سنة ١٢٥٠م .[١]

إلى ذلك ، أنصف بعض علماء الغرب العرب وأشادوا بجهودهم العلمية التي لولاها لتأخرت أوروبا وظلت حبيسة الجهل والظلام لعدة قرون ، في الوقت الذي كان للعرب العديد من الفقهاء والشعراء والأدباء الذين ساهموا في نهضة العرب روحياً ونفسياً وخلقياً بأن فتحوا آفاقاً واسعة في ميادين العلم المختلفة .[٢]

وخلاصة القول هو أنه تأثر الأوروبيون بالحضارة العربية الإسلامية في مختلف المجالات العلمية والإقتصادية والإجتماعية وغيرها ، فنقلوا عن المسلمين تقنيات الري ، والأسطرلاب ، وصناعة الأدوية ، والرياضيات ، مما أدّى إلى ازدهار الحركة الفكرية والفنية هناك . وتمكنوا من إحراز التقدم في مجال علوم الفلك حتى استطاعوا الوصول إلى القمر ووطأوها بأقدامهم .

وبما أن الأيام دول ، فإنه يجب على المسلمين أن يستقوا العلوم الطبيعية الحديثة من الدول الغربية ويتعلموا منهم تلك الفنون ويتقنوها على أتم وجه ، امتثالاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها) ، أي أن كل من قال بالصواب أو تحدث بالحق قُبل قوله وإن كان بعيداً بغيضاً ، حيث قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .[٣] فالمؤمن عليه أن يأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت وعلى أي لسان ظهرت ، فالرأي

[١] لويس يونغ ، المصدر السابق ، ص ١١ .
[٢] مصطفى صادق الرافعي ، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦ .
[٣] سورة المائدة ، آية رقم : ٨ .

والقول إذا كان موافقاً للصواب فهو ملزم بالقبول مهما كان قائله ومهما كانت منزلته على حد قول القائل :

لا تحقرن الرأي وهو موافق حكم الصواب إذا أتى من ناقص
فالدُّرُّ وهو أعز شيء يُقتنى ما حطّ قيمتَه هوانُ الغائص

ومعناهما : إذا أتاك الرأي السديد والمشورة الصحيحة من إنسان ناقص الخلق فلا تزدريه ، فإن الجوهر واللؤلؤ الثمين – وهو أثمن شيء يقتنيه المرء – لا ينقص من قيمته هوان الغواص الذي جمعه .

فحقاً هذا هو السبيل الوحيد لاستعادة واستقراء مجد المسلمين الراحل من جديد . وليس الأمر بغيضاً في أن نسعى إلى معرفة العلوم المستقاة من تلك العلوم التي وضع أساسها آباؤنا وأجدادنا أو كانوا حلقة وصل لها ، أو ظهرت من خلال التعمق والتدبر والإمعان في آيات الله سبحانه وتعالى ، ليصبح المؤمن كما كان كالسراج ، أينما وضع أضاء ، لأن الزمن الذي تولى لن يعود والحسرة على ما فات لا طائل فيها ، ولكن إذا بدأنا نواصل بذل الجهود ونسعى إلى إحياء التراث الإسلامي ونعود إلى الله من جديد فإن تغير أحوال المسلمين وتطورهم ليس ببعيد ، لأن الله عز وجل قد أكد في محكم آياته قائلاً : (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ) ، [1] فالله سبحانه وتعالى بكمال عدله وحكمته لا يُغير ما بقوم من خير إلى شر أو العكس أو من رخاء إلى شدة ، أو العكس حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإذا كانوا في صلاح واستقامة وغيروا غير الله عليهم بالعقوبات والنكبات والشدائد وغيرها من أنواع العقوبات جزاء وفاقاً ، والعكس كذلك إذا كانوا في سوء ومعاص ، أو كفر وضلال ثم تابوا توبة نصوحا واستقاموا على طاعة الله غيَّر الله حالهم من سيء إلى حسن ، وتفرقهم إلى اجتماع ووئام ، وشدتهم إلى نعمة وعافية ورخاء ، وغير ذلك من أنواع الخير . والله على ما نقول وكيل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

[1] سورة الرعد ، آية رقم : ١١ .

تقبيل المصحف الشريف وحكمه في أقوال علماء الإسلام

بقلم : الأستاذ محمد عمر شفيق الندوي *

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . وبعد !

فإن تعظيم المصحف وتبجيله جزء من أجزاء الإيمان ، وحق من حقوق القرآن المتفق عليها بين أمة خير ولد عدنان ؛ قال الإمام النووي : " أجمعت الأمة على وجوب تعظيم القرآن على الإطلاق ، وتنزيهه ، وصيانته " [1] ، فكل عمل فيه تعظيم لكتاب الله فهو محمود ما لم يكن منهيا عنه بعينه ، وكل ما فيه إهانة واستخفاف فهو ممنوع ، ومن مظاهر تعظيم القرآن الكريم وتبجيله التي اختلفت فيها الأنظار ، وتباينت فيها الآراء تقبيل المصحف الشريف ، عند تلاوته أو سقوطه ووقوعه على الأرض ، حيث كثر التنازع حوله ، وتشدّد بعض المعاصرين فبالغ في النكير عليه ، وجعله بدعة وضلالة ، فأردت أن أجمع أقوال أهل العلم وأدلتهم في المسألة ، وأبين وجه الصواب فيها. ومن الله أستمد العون فأقول :

اختلف العلماء في حكم تقبيل المصحف على أربعة أقوال :

القول الأول : الاستحباب ، وهو قول جمع من العلماء ، منهم الإمام أحمد في رواية [2] ، ومعظم فقهاء الشافعية ؛ كالعلامة بدر الدين الزركشي [3] ، والسيوطي [4] ، وشمس الدين السفيري [5] ، وابن حجر الهيتمي [6] ، والبجيرمي [1] ، وبعض الحنفية ؛ كالعلامة شمس الدين

---

* جدة ، المملكة العربية السعودية .

[1] المجموع للنووي ٢/ ١٧٠ .

[2] الفروع لابن مفلح ١/ ٢٥٠ ، الآداب الشرعية لابن مفلح أيضاً ٢/ ٢٨٣ .

[3] البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٤٧٨ .

[4] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤/ ١٨٩ .

[5] المجالس الوعظية للسفيري ١/ ٢٤٤ .

[6] الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ١٦٤ .

الشلبي [٢] ، ومحمد حسن المكي [٣] .

القول الثاني : الجواز ، وبه قال طائفة من العلماء ، منهم الإمام أحمد في رواية [٤] اعتمدها فقهاء المذهب [٥] ، واختاره جمع من فقهاء الحنفية [٦] ، والشيخ ابن باز من المعاصرين [٧] .

القول الثالث : يكره تنزيهاً ، وعليه المتأخرون من فقهاء المالكية [٨] .

الرابع : بدعة محدثة ، حكاه صاحب القنية من الحنفية عن قائل مجهول [٩] ، واختاره بعض المعاصرين ؛ كالشيخ ابن عثيمين [١٠] ، والألباني [١١] ، ولم نقف على أحد من السلف قال به .

وبالنظر في هذه الأقوال يتبين أن جمهور العلماء لا يرون حرجًا في تقبيل المصحف ، بل يستحبه كثير منهم ، وأنه لا يدخل في مسمى البدعة عند أحد من السلف ، بل غاية ما نقل عن بعضهم هو التوقف ؛ كما في إحدى الروايات عن الإمام أحمد [١٢] ، والمشهور عنه هو القول بالاستحباب أو الجواز . أما الكراهة عند متأخري المالكية فهي تنزيهية ، وتعني أن الترك خير من الفعل ، لا المنع والتحريم .

واحتج الجمهور على الاستحباب أو الجواز بما يلي :

١- قوله تعالى : { وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [الحج :

---

[١] حاشية البجيرمي على الخطيب ٣٧١/١ .
[٢] حاشية الشلبي على تبيين الحقائق ١٥/٢ .
[٣] غنية الناسك لمحمد حسن شاه المكي ص ١٢٦ .
[٤] الفروع لابن مفلح ٢٥٠/١ ، الآداب الشرعية والمنح المرعية له أيضاً ٢٨٣/٢ .
[٥] كشاف القناع للبهوتي ١٣٧/١ ، مطالب أولي النهى للرحيباني ١٥٧/١ .
[٦] مجمع الأنهر لشيخي زادة ٥٥٤/٢ ، الدر المختار مع رد المحتار لعلاء الدين الحصكفي ٣٨٤/٦ .
[٧] مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز ٢٨٩/٩ .
[٨] شرح مختصر خليل للخرشي ٣٢٦/٢ ، الفواكه الدواني للنفراوي ٣٥٦/١ .
[٩] الدر المختار للحَصكفي المطبوع مع رد المحتار ٣٨٤/٦ .
[١٠] فتاوى نور على الدرب في موقع الشيخ محمد بن صالح العثيمين .
[١١] كيف يجب علينا أن نفسر القرآن الكريم للألباني ص ٢٨ .
[١٢] البرهان للزركشي ٤٧٨/١ ، الفروع لابن مفلح المقدسي ٢٥٠/١ ، كشاف القناع للبهوتي ١٣٧/١ .

٣٢] ، و " شعائر الله : أعلام دينه " [١] ، جمع شعيرة ، وهي العلامة ، فكل شيء جعل علماً من أعلام طاعة الله ، فهو من شعائر الله تعالى [٢] ، والآية " عامة في جميع شعائر الله " [٣] .

ووجه الاستدلال هو : أن الآية تنص على تعظيم كل ما كان من شعائر الله ، ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم من أعظم شعائر هذا الدين وأعلامه ؛ قال الشيخ العلامة الإمام ولي الله الدهلوي : " معظم شعائر الله أربعة : القرآن ، والكعبة ، والنبي ، والصلاة " [٤] ، فكل عمل يقصد به تكريم المصحف وتعظيمه يكون مشروعاً داخلاً في عموم الآية إذا لم يكن مما ورد النهي عنه بعينه .

٢- ما رواه ابن أبي مليكة ، قال : كان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يأخذ المصحف فيضعه على وجهه ، ويبكي ، ويقول : « كلام ربي ، كتاب ربي » [٥] . وإسناده صحيح إلى ابن أبي مليكة [٦] ، وقد صححه الإمام النووي في كتابه التبيان بعد أن ساقه من مسند الإمام الدارمي [٧] ؛ وقد احتج به الإمام أحمد على جواز تقبيل المصحف ؛ قال الحافظ ابن كثير في ترجمة عكرمة : " كان يقبل المصحف ويبكي ويقول : كلام ربي كلام ربي . احتج بهذا الإمام أحمد على جواز تقبيل المصحف ومشروعيته " [٨] ، وهذا يدل على ثبوته عنده .

٣- القياس على تقبيل الحجر الأسود [٩] ؛ قال العلامة الشوكاني : " استنبط بعضهم من مشروعية تقبيل الحجر ، وكذلك تقبيل المحجن

---

[١] تفسير البغوي ١٧٢/١ ، تفسير القرطبي ٥٦/١٢ .
[٢] اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ٩٣/٣ .
[٣] أضواء البيان للشنقيطي ٢٥٧/٥ .
[٤] حجة الله البالغة للإمام ولي الله الدهلوي ١٣٣/١ .
[٥] أخرجه الدارمي في السنن ٢١٠٩/٤ ، والطبراني في المعجم الكبير ٣٧١/١٧ ، والحاكم في المستدرك ٢٧١/٣ ، والبيهقي في شعب الإيمان ٥١٢/٣ .
[٦] لكنه منقطع بين ابن أبي مليكة وعكرمة ، فإنه لم يدرك عكرمة ، وقد نبه على ذلك الحافظ الذهبي في تلخيص المستدرك ٢٧١/٣ بقوله : " مرسل " .
[٧] التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص : ١٩١ .
[٨] البداية والنهاية لابن كثير ٤١/٧ .
[٩] البرهان للزركشي ٤٧٨/١ ، حاشية البجيرمي على الخطيب ٣٧٣/١ .

جواز تقبيل كل من يستحق التعظيم من آدمي وغيره ، ونقل عن ابن أبي الصيف اليماني – أحد علماء مكة من الشافعية – جواز تقبيل المصحف وأجزاء الحديث "[1] .

وأما وجه القول بالكراهة فهو أنه لم يرد في تقبيل المصحف شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والاقتصار على الوارد من صفة التعظيم أولى ، وأن " تعظيم المصحف قراءته ، والعمل بما فيه ، لا تقبيله ولا القيام إليه "[2] .

واستدل المانعون بما يلي :

١- ما رواه عبد الله بن سرجس ، قال : رأيت الأصلع يعني : عمر بن الخطاب يقبل الحجر ويقول : « والله ، إني لأُقَبِّلُك ، وإني أعلم أنك حجر ، وأنك لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قَبَّلَكَ ما قبلتك »[3] . فهذا الأثر يدل على أن " ما طريقه القُرَب إذا لم يكن للقياس فيه مدخل ، لا يستحب فعله وإن كان فيه تعظيم إلا بتوقيف "[4] .

٢- ما رواه مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه " طاف مع معاوية رضي الله عنه بالبيت ، فجعل معاوية يستلم الأركانَ كلَّها ، فقال له ابن عباس : لمَ تستلمُ هذين الركنين ، ولم يكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستلمهما ؟ فقال معاوية : ليس شيء من البيت مهجوراً ، فقال ابن عباس : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأَحْزَاب : ٢١] ، فقال معاوية : صدقتَ "[5] . فأنكر ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية تقبيل الأركان كلها ، وإن كان فيه تعظيم ، وذلك لأنه زيادة على فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، فدل ذلك على أن

---

[1] نيل الأوطار للشوكاني ٥/٥١ . وانظر : فتح الباري لابن حجر ٣/٤٧٥ .
[2] المدخل لابن الحاج ١/٢٦٣ .
[3] رواه البخاري ٢/١٤٩ ، ومسلم ٢/٩٢٥ ، واللفظ له .
[4] الفروع لابن مفلح ١/٢٥٠ ، كشاف القناع للبهوتي ١/١٣٧ .
[5] أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/٤٣٦ واللفظ له ، والترمذي في سننه ٣/٢٠٤ ، وقال : حديث حسن صحيح . وأخرجه البخاري في صحيحه ٢/١٥١ تعليقاً بصيغة الجزم .

التقبيل من القرب التي لا يصار إليها إلا بتوقيف [1] .

٣- لأنه لا يشرع تقبيل شيء من الجمادات إلا ما استثناه الشرع ، وهو الحجر الأسود [2] ؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " ليس في الدنيا من الجمادات ما يشرع تقبيلها إلا الحجر الأسود " [3] .

وأجاب الجمهور عن قول عمر بن الخطاب رضي الله بأنه إنما قال ذلك حماية لجناب التوحيد ، ودفعًا لأوهام الجاهلية ، فأراد أن يبين للناس أن تقبيله للحجر الأسود مخالف لفعل الجاهلية في عبادتهم الأصنام ، فليس المقصود منه جلب النفع أو دفع الضرر ، وإنما هو عبادة تلقاها عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال الطبري : " إنما قال ذلك عمر لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام ، فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية ، فأراد عمر أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته ؛ كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان " [4] .

وأما إنكار ابن عباس رضي الله عنهما على معاوية تقبيل الأركان كلها فذلك لأنه زيادة على فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ النبي صلى الله عليه وسلم ترك استلام الركنين الشاميين ، وإذا ترك النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً من الأشياء شُرعت متابعته فيه ، إذ من المقرر شرعاً أن ما ثبت تركه لا يشرع فعله ، وأما تقبيل المصحف فلم يثبت عن النبي صلى الله فعله ، ولا تركه ؛ وخاصة إذا علمنا أن القرآن لم يكن مجموعًا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم في مصحف واحد ، بل كان مفرقاً في الرقاع والعظام والحجارة وجريد النخل وصدور الرجال ، والمكتوب منه في ذلك قليل ، فتقبيل المصحف من المسكوت عنه ، الذي لم يُنقل نفيه ولا إثباته ، ومن المعلوم أن " عدم النقل ليس نقلاً

---

[1] الفروع لابن مفلح المقدسي ٢٥١/١ ، كشاف القناع للبهوتي ١٣٨/١ .
[2] لقاء الباب المفتوح للعثيمين ، اللقاء : ٢١٣ .
[3] مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧٩/٢٧ .
[4] فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٤٦٢/٣ – ٤٦٣ .

للعدم "[1] ، فيحكم على هذه المسألة بالنظر إلى الأدلة العامة .

وأما الاستدلال بأنه لا يشرع تقبيل شيء من الجمادات إلا ما استثناه الشرع فهو في غير محله ، وذلك لأن المصحف لا يقال عنه إنه من الجمادات ، فهل من المعقول أن يسوى بينه وبين الأشجار والأحجار ، فإطلاق لفظ الجماد عليه أمر محدث باطل ؛ لأن ما في المصحف هو كلام الله على الحقيقة ؛ قال شارح الطحاوية العلامة ابن أبي العز الحنفي : " ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله ، وليس هو كلام الله ، لما حرم على الجنب والمحدث مسه "[2] ، والذي يقبل المصحف لا يقصد تعظيم الحبر والورق ، وإنما يقصد تعظيم ما تضمنته هذه الأوراق ، وهو كلام الله تعالى ، فالقرآن كيفما كتب ، وكيفما قرئ لن يخرج عن كونه كلام الله تعالى على الحقيقة . وشيخ الإسلام ابن تيمية إنما قال ما قال في معرض إنكاره على تقبيل القبور والأضرحة ، دون المصحف ، وكذلك لم نجد من الفقهاء السابقين من منع عن تقبيل المصحف بحجة أنه لا يشرع تقبيل الجمادات .

والخلاصة أن تقبيل المصحف من الأمور المشروعة التي يقصد منها التعظيم والتبجيل وإظهار المحبة ، والتعظيم ليس له صور محددة شرعاً يلتزم بها ، ولا يجوز الخروج عنها ، ولم يثبت عن أحد من السلف المنع من التقبيل ، بل استحبه كثير من علماء الأمة ، وعلى رأسهم إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل في الرواية المشهور عنه ، وأما القول ببدعيته فهو قول أحدثه بعض المتأخرين ، لا سلف لهم في ذلك من فقهاء الأمة السابقين ، ولا دليل يمكن التعويل عليه من كتاب الله وسنة رسوله النبي الأمين . وقد أحسن الشيخ ابن باز رحمه الله إذ قال : " تقبيل المصحف لا حرج فيه ، ولا يسمى بدعة ؛ لأنه من باب تعظيم القرآن ، ومن باب محبته "[3] ، فالأمر في المسألة واسع ، ولا ينبغي أن نحجر واسعاً ، ونشدد في ذلك ، وليسعنا ما وسع السلف ، وما وسع الأئمة من قبلنا .

---

[1] الشرح الممتع للعثيمين ٧/ ٣١٠ .
[2] شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ١/ ١٩٠ .
[3] فتاوى نور على الدرب في موقع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

الفقه الإسلامي

مظاهر حماية المستهلك من خلال النوازل الفقهية

الدكتور مصطفى البعزاوي *

إن من خصائص الإسلام صلاحيته لكل زمان ومكان ، وشموله لكل مناحي الحياة ، فينظم مختلف المجالات من عبادات ومعاملات ، فالمحور الأساسي الذي تدور عليه شريعتنا الغراء هو الإنسان ، وهذا الأخير إما أن يكون منتجاً ، وإما أن يكون مستهلكاً .

ومن هذا المنطلق ، أصبح ضرورياً حماية المستهلك ،خاصة وأننا نسمع ما يؤدي إليه عدم حماية المستهلك من انتشار الأوبئة وانتقال الأمراض والتي غالباً ما تؤدي إلى الوفاة .

ولأهمية هذا الموضوع الذي له مساس بحياة الناس اليومية في عصرنا الحالي ، فإننا نلمس إشارات فقهية في كتب النوازل الفقهية التي تجسد وقائع حية في حماية المستهلك ، والنظر في هذا الشأن سيستوقفه الجانب الأساسي في مؤسسة الحسبة ، التي كانت تعنى بحماية المستهلك خاصة ، ورعايته في كل تجليات حياته عموماً .

فما المقصود بحماية المستهلك ؟

تعني حماية المستهلك في اللغة : دفع الاعتداء والظلم ، عمن يقوم بعملية الإنفاق والإنقاذ .

ويُراد به في الاصطلاح الفقهي : الإتلاف فيما ينفع ، أو هو زوال المنافع التي وجد الشيء من أجل تحقيقها وإن بقيت عينه قائمة [1] .

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية أن الاستهلاك : إجراء الشيء من أن يكون منتفعاً به منفعة مطلوبة منه عادة مع بقاء عينه [2] .

ولا شك أن موضوع حماية المستهلك من المواضيع التي تجذب اهتمام الكثيرين ، نظراً لما يمكن أن يترتب عن الاستهلاك من انعكاسات سلبية على المستهلك في الحالة التي تنعدم أو تضعف فيها

* باحث في الدراسات الإسلامية ، مكناس ، المغرب .

[1] معجم لغة الفقهاء ، قلعجي قنيبي ، ومحمد رواس حامد ،دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٩٨٥م ، ص ٦٦ .

[2] الموسوعة الفقهية الكويتية ج ٢١٦/١ .

الحماية المفترضة ، وهذا من شأنه يؤدي إلى مآلات خطيرة تصل أحياناً إلى مستوى الوفاة . ونظراً لكل هذه الاعتبارات ، فلقد أقر الإسلام قاعدة مهمة تتحدد مقوماتها في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (من غشنا فليس منا) [1] ، وعملاً بمقتضيات هذا الحديث الشريف فإن التاجر وجب عليه التحلي بقيم الصدق والأمانة والثقة .

وانطلاقاً من هذا الحديث فإن فقهاء النوازل ، وظفوا في فتاواهم تدابير وقائية واحترازية لحماية المستهلك ، تتجلى في مجموعة من النماذج منها على سبيل المثال لا الحصر :

هل يُباع القمح وما شاكله بدون غربلة ؟

نص النازلة

سئل [2] ، عن أهل الأفران البائعين للخير هل يغربلون القمح ؟ وكذا من يبيع القمح والشعير والفول والعدس والحمص وجميع القطاني ، فقال : عن مالك ، لا يبيعون ذلك حتى يغربلوه ، رواه ابن وهب ، وابن عمر : أرى أن يلزموا من ذلك ، قلت : في المدونة يغربل القمح للبيع وهو الحق الذي لا شك فيه ، فظاهره مثل تقييد ابن عمر .

يتبين في النازلة أنها قضية تهتم بالحفاظ على صحة الإنسان وحمايته من خلال طعامه اليومي الذي هو الخبز ، لذلك تحتم على أهل الأفران البائعين للخبز غربلة القمح ، تفادياً لأن يكون مضمناً للتراب والأحجار والغبار وغيره مما قد يضر بالمستهلك ويضعف جودة المنتوج .

وهذه النازلة وغيرها من النوازل الشبيهة لها ، تندرج في إطار مهام المحتسب الذي توكل إليه رقابة ما يجري في الأسواق عموماً ، وعلى أهل الحرف والمهن خاصة .

---

[1] صحيح ابن حبان ، رقم الحديث ٣٢٦ ، باب الزجر عن أن يمكر المرء أخاه المسلم .

[2] سئل ، وردت بصيغة المبني للمجهول . في فتاوى البر زلي ، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام ، لأبي القاسم بن أحمد البلوى التونسي المعروف بالبرزلي ، تقديم وتحقيق ، الأستاذ الدكتور ، محمد الحبيب الهيلة . دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ج ٣/ ص ١٨٤ ، ووردت النازلة بنفس اللفظ والمعنى في كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر الأندلسي ت ٢٨٩ هـ ، دراسة وتحقيق محمود علي مكي . ص : ٥١ .

ومن لم يمتثل لمثل هذه السلوكيات فإنه يتصدق بخبزه تأديباً له ، ويقام من السوق ولا يعمل خبزاً ، والتصدق هنا من باب – العقوبة – لأن غش الناس في طعامهم وشرابهم من عظائم المنكرات التي يجب إنكارها ، وها هو النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من غش في طعامه بسبب لم يقصده ، إنما بسبب ماء نزل من السماء ويتوعده بأنه ليس منه وخارج عن سنته وطريقته ، فكيف بمن يتعمد غش الناس في طعامهم وشرابهم ويوقع بهم الضرر الجسيم في صحتهم وأجسادهم . ومن هنا عمل الخلفاء الراشدون بمبدأ الحسبة في الأسواق وغيرها ومتابعة الغشاشين والمفسدين وسار عليه من بعدهم من ولاة أمر المسلمين وجعلوها منصباً وظيفياً تحاسب عليه الدولة [1] .

ومن خلال النوازل السابقة يتبين أن الفقهاء كانوا يقومون بتدابير احترازية لحماية المستهلك ، ومما جاء في أقوالهم :

وللمشتري في الأحوال التي يكون فيها الخبز مخالفاً للمواصفات ، بأن لم تجر غربلته أو وجدت فيه حجارة إرجاع ما اشتراه وأخذ قيمته من البائع ويجب على المحتسب أن يأمر الخباز والفرن والبائع بالتصدق بهذا الخبز الذي يكون على هذه الشاكلة ، وله حق حبسه مع هذا التصدق ، وكذلك له حق إخراجه من السوق ومنعه من مزاولة المهنة لفترة محددة أو مطلقاً ، لأن هذا قديحة فيه [2] .

فالأمر بالتصدق بالخبز المغشوش ، أو الحبس مع التصدق ، أو الإخراج من السوق ومنعه من مزاولة المهنة لمدة معينة ، تدابير وقائية لمنع الإضرار بالمستهلك ، وحمايته من الجرائم المحتمل الوقوع فيها ، وفيها منع لتكرار الغش وخداع المستهلكين .

ومما ذكر أيضاً في كتب الحسبة كتدابير احترازية لحماية المستهلك ، أن يكتب والي الحسبة في سجل خاص أسماء الخبازين ، ويحدد مواضع الأفران ومواقعها ، لأن الحاجة تدعو إلى ذلك [3] ، ويفتش

---

[1] الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، للشيخ أبي الحسين علي بن محمد الماوردي ، دار الحرية للطباعة – بغداد ١٤٠٩هـ ١٩٨٦م ، ص : ٣٨٧ – ٣٨٨ .

[2] الدولة ووظيفتها الاقتصادية في الفقه السياسي الإسلامي ، د . عبد اللطيف الهميم ، دار عمار للنشر ، عمان ، ٢٠٠٤م ، ص : ٣٩٤ .

[3] نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، محمد بن أحمد بن بسام ، دار الحداثة ، بيروت ص: ٢١.

عنهم أفرانهم ويأمرهم في حالة الفراغ من إحماء الفرن من مسحه بخرقة نظيفة قبل الشروع في طبخ الخبز [1] .

وتفعيلاً لهذه المقتضيات ، فإنه يأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها ، وغسل المعاجن ونظافتها ، والقماش الذي يغطي به الخبز والأوعية التي يحمل فيها [2] ، وعندما يبدأ عملية العجن ، يجب عليه أن يلبس ثوباً خاصاً مقطوع الأكمام ، وعليه أن يلتثم لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من فضلاته في العجين ، وعليه أن يشد عصابة بيضاء على جبينه لئلا يتساقط عرق منه ، كما عليه أن يحلق شعره لئلا يسقط مع العجين شيء .

وفي الأحوال التي يعجن فيها نهاراً ، فإنه يشترط أن يكون ثمة إنسان في يده مذبة يطرد بها الذباب [3] ، والمحتسب هنا مجبر على مراقبة صارمة ،خاصة وأن عدم الالتزام باتباع قواعد النظافة كان من أهم المخالفات التي سادت في أسواق الدولة الزيانية . ويكفينا دليلاً هنا ما ذكره ابن الحاج في شأن بعض عادات أصحاب الأفران حيث كانوا يتركون عجين الخبز بدون تغطية للخمير فتمشي عليه الحشاش ، حتى تجد في خبزهم أشياء مستقذرة ، كالحلفاء والشعر ، والحصى والذباب [4] .

وإذا كانت الرؤية الفقهية كما سبقت الإشارة إليه تتعلق بحماية المستهلك من خلال طعامه الأساس : " الخبز " ، فإنها توحي بنفس الإشارات إلى باقي أطعمة الإنسان .

من خلط الزيت الجيد بالرديء فقد سئل يحيى بن عمر [5] : عن خلط الزيت الجيد بالرديء والقمح الجيد بالرديء هل يحل ؟ فقال : لا يحل ، ولا أدري كيف سألته عنه ، وقد قال لي مالك مرة في شيء سألته

---

[1] المصدر نفسه ، ص : ٢٢ .

[2] رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة ، محمد بن أحمد بن عبدون ، المطبعة الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥٥م ، ص : ٤٧ .

[3] نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، لعبد الرحمن بن نصر الشيرزي ، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ١٣٦٥هـ ، ص : ٢٢ .

[4] المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها ، لابن الحاج ، تحقيق : توفيق حمدان ، دار الكتب العلمية لبنان ، ط : ١٩٩٥م ، ج : ٤ ، ص : ٣٦٢ .

[5] البرزلي ٣ ، ١٨٤/١٨٥ .

عنه : أنت حتى الساعة تسأل عن مثل هذا ، وينهى عن مثل هذا .

فهذه النازلة ، تكشف عن وجود ظاهرة الغش ، لذلك نجد الإمام مالكا رحمه الله يستغرب من وقوع مثل هذه النازلة في المجتمع الإسلامي ، وتضمن جوابه النهي عن مثل هذا . والنهي طلب الكف عن الشيء كما هو مقرر عند الأصوليين ، وهو يفيد التحريم إن لم تكن هناك قرينة تصرفه عن المعنى الأول .

ويترتب عن هذه النازلة : أن البائع الذي يخلط الزيت الجيد بالرديء دون بيان ذلك للمشتري – المستهلك – فإنه بالخيار بين الإمساك والرد علما أن خلط الرديء بالجيد أو بالقديم الطيب غش ، فإن عذر بجهالة يتقدم إليه أن لا يبيع مثل هذا في السوق ، فإن عاد نكل وتصدق به على المساكين [1] .

وللإشارة ، فإن مثل هذه النوازل المرتبطة بالحفاظ على جودة الطعام وحمايته ، كانت تندرج قديما عند الفقهاء في إطار ما يسمى بمؤسسة الحسبة ، ولقد بين الفقهاء أحكام الحسبة في أبواب مختلفة ، باعتبار أن هذه المؤسسة كانت تلعب دورا هاما في الإشراف والرقابة والتأديب ، وقد كانت تتدخل في كثير من أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والبيئية فمثلا : كان المحتسب يقوم على الطباخين وقلايي السمك " ، ويأمرهم كل يوم بغسل قفاهم وأطباقهم التي يحملون فيها السمك ، وينشرون فوقها الملح المسحوق كل ليلة بعد الغسيل . . . لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها ، وكثر وسخها ، فإذا وضع فيها السمك الطري تغيرت ريحه وفسد طعمه [2] .

ومن ملحقات النوازل السالفة :

حكم الجزار الذي ينفخ في اللحم .

ففي العتبية ، سئل مالك عن النفخ في اللحم كما يصنعه الجزارون ، فقال : إني لأكرهه وهو مما يغير طعمه ، أشهب : سمعت مالكا يقول : أرى أن يؤدب الجزارون ويمنعون من ذلك [3] .

[1] المصدر نفسه ، ص : ١٨٥ . بتصرف .
[2] نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، للشيرزي ، ص : ٢٢ .
[3] فتاوى البرزلي : ج : ٣ ، ص : ٢٠٠ .

تتضمن هذه النازلة بعض المخالفات التي يفعلها الجزارون ، ويتعلق ذلك بالنفخ في اللحم ، وهذا العمل كما نص عليه في نازلتنا عمل مكروه . وينبغي أن يؤدب عليه الجزارون ، لأنه يؤدي إلى تغيير طعمه وخاصة عندما يكون اللحم ليناً ، حسب ما ذهب إليه يحيى بن عمر في قوله : " ولينه عنه أشد النهي " .

والملاحظ أن مثل هذه الظاهرة لها امتداد تاريخي ، بحيث نجد سيدنا علياً رضي الله عنه كان ينهى عن نفخ اللحم ، فما ذكر عنه أنه كان يشرف على السوق بنفسه ، ويصدر قوانينه الاجتماعية ، يخرج رضي الله عنه ، ومعه درة له يمشي بها في الأسواق ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ، ويقول : أوفوا الكيل والميزان ، ويقول : لا تنفخوا اللحم [1] .

والمتتبع للنوازل الواردة في موضوع طعام الإنسان عموماً يجد أغلب المفتين بمختلف أزمنتهم وأمكنتهم يتفقون على منع مثل هذه السلوكيات التي كانت تصدر عن أصحاب المهن ، لدرجة أنهم ينهون عنه أشد النهي ، مع زجرهم ، وتأديبهم وإن عادوا أخرجوا من السوق .

وترتيباً على كل ما سبق ، نخلص إلى أهمية ما يلي :

– الحفظ على أدبيات الحرف والمهن .

– استحضار البعد المقاصدي في وقاية وحماية الإنسان درءً للأمراض وانتشار الأوبئة .

– كما أبرزت النوازل السالفة حضوراً لافتاً لمؤسسة الحسبة قصد حماية المستهلك .

وإذا كانت النوازل القديمة أسهمت في حل وكشف القضايا المنوطة بصحة الإنسان ، فما أحوجنا اليوم لتفعيل القوانين لحماية المستهلك ، سواءً على مستوى المؤسسات أو الأجهزة الحكومية في القيام بأعمال المراقبة والتفتيش اللازمة على أنواع الغذاء المختلفة ، مع ضرورة إجراء التفتيش اللازم على المطاعم والمجازر ، وكذا المحلات التابعة لها ، بفحصها للتأكد من خلوها من الأمراض والأوبئة ، وذلك كله حرصاً على حماية الصحة العامة للمواطنين وسلامتهم .

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج : ٣ ، ص : ٢٨ .

دراسات و أبحاث

القيم الحضارية في السنة النبوية

– على صاحبها أفضل الصلاة و السلام –

(الحلقة الرابعة الأخيرة)

د . محمد شاهجهان الندوي *

١٠ – التزام النظام والأدب العام :

نظم الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – حياة الناس ، وعلمهم التزام النظام واحترام الآداب في جميع شؤون الحياة ، كبيرها وصغيرها ، فلا يدخل بيت أحد – وإن يكن أقرب الناس إليه – إلا بعد استئذان . والاستئذان مقيد بثلاث مرات ، وإلا فعليه أن ينصرف ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ " . (أخرجه البخاري رقم ٦٢٤٥ ، ومسلم رقم ٢١٥٣) .

ووضح لهم قواعد في آداب التحية والسلام : فليسلم الصغير على الكبير، والقليل على الكثير ، والراكب على الماشي ، والمار على الجالس . فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لِيُسَلِّمِ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ" (أخرجه البخاري في " صحيحه " (٦٢٣٣) ، وفي " الأدب المفرد " (٩٩٣) ، ومسلم (٢١٦٠) ، وأبو داود (٥١٩٩) .

وأوجب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – على كل فرد أن يحترم حقوق الآخرين ، ويرعى الأعراف السائدة في البيع والشراء ، والزواج والتقاضي ، وسائر أنواع التعامل بين الناس . فلا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه ، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – أنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : لا يَبِع الرَّجُلُ على بَيْعِ أخِيهِ ، ولا يَخْطب على خطبة أخيه ، إلا أنْ يَأذَنَ لَهُ " . (أخرجه البخاري رقم ٥١٤٢ ، ومسلم رقم ١٤١٢) .

وعلى الناس أن يراعوا ما تراضوا عليه من عقود أو شروط ، كي تنتظم

* عميد كلية الحديث ، الجامعة الإسلامية ، شانتابرم ، مالابرم ، كيرالا .

أمورهم وتستقر معاملاتهم ، عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " المسلمون على شروطهم ، والصلح جائز بين المسلمين " (أخرجه الحاكم رقم ٢٣٠٩ ، وأبوداود رقم ٥٩٤ ، وهو حديث صحيح لغيره).

وينبغي للمسلمين أن يتعاونوا على تنظيم أمور حياتهم بما يعين كل واحد منهم على أن يؤدي واجبه ، ويأخذ حقه . فعن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا خرجَ ثلاثة في سفر فليُؤَمِّروا أحدهم ". (أخرجه أبوداود رقم ٢٦٠٨ ، وهو حديث صحيح) .

وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إذا كان نفر ثلاثة ، فليؤمروا أحدهم ، ذاك أمير أمره رسول الله – صلى الله عليه و سلم – " . (أخرجه الحاكم رقم ١٦٢٣ ، وابن خزيمة رقم ٢٥٤١ ، وهو حديث صحيح) .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لا يَحِلُّ أَنْ يَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِطَلَاقِ أُخْرَى ، وَلا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ صَاحِبِهِ حَتَّى يَذَرَهُ ، وَلا يَحِلُّ لِثَلاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضٍ فَلاةٍ إِلا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ ، وَلا يَحِلُّ لِثَلاثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضٍ فَلاةٍ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا " (أخرجه أحمد رقم ٦٤٧ ، وهو حديث صحيح لغيره إلا حديث الإمارة فحسن) وجاء في شرحه: " إنما أمر بذلك ليكون أمرهم جميعاً ، ولا يتفرق بهم الرأي ، ولا يقع بينهم خلاف فيعنتوا . وفيه دليل على أن الرجلين إذا حكما رجلاً بينهما في قضية ، فقضى بالحق فقد نفذ حكمه " . (الخطابي ، معالم السنن ، ٢٦٠/٢ ، ط : ١ ، حلب ، المطبعة العلمية ، ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢م) .

وصلاة الجماعة تدريب مستمر على رعاية الطاعة والتزام النظام ، وهكذا علم النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – الإنسانية الطاعة والتقيد بالنظام .

١١ – النظافة والتجمل :

أكد النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – على الاعتناء بالطهارة والنظافة والتجمل ، فعن أبي مالك الأشعري – رضي الله عنه – قال : قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – : " الطُّهور شَطْرُ الإيمان " . (أخرجه مسلم رقم ٢٢٣ ، والدارمي (٦٥٣) ، والترمذي (٣٥١٧) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " (١٦٨) ، وأبو عوانة (٦٠٠) .

وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : إنَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " السواكُ مَطْهَرة للفم ، مَرْضاة للرب". (أخرجه النسائي رقم ٥ ، وأبو يعلى (٤٥٩٨) ، وأحمد رقم ٢٤٢٠٣ ، وهو حديث صحيح) .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – : أَنَّ رسولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – قال : " من كان له شعر فليُكْرِمه " . (أخرجه أبو داود (٤١٦٣) ، والبيهقي في الشعب رقم ٦٤٥٥ ، والطبراني في الأوسط رقم ٨٤٨٥ ، وهو حديث صحيح) .

وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " نظفوا أفنيتكم " . (أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) ، وهو حسن لغيره) .

والتجمل والظهور بمظهر الجمال محبوب لله تعالى ، فعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : إن الله جميل يحب الجمال " . (أخرجه مسلم رقم ٩١ ، والترمذي (١٩٩٨) .

والصلوات الخمس أعظم وسيلة للطهارة من الخبث والحدث .

وعلى كل ، فإن النظافة من الخصال المحبوبة ، والوسيلة إلى الصحة والقوة ، والمفضية إلى التجمل في نظر نبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – .

١٢ – التسامح مع المخالفين :

الاختلاف من طبيعة هذا الكون ، وقد خلق الناس بقدرات ومواهب ومؤهلات مختلفة ، فليس غريبا الاختلاف في الدين والفكر والرأي ، ولذا أكد الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – على المعاملة بالحسنى مع المخالفين ، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " دخل رهط من اليَهود على رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : السَّام عليك ، قالت عائشة: ففهمتُها ، فقلت : عليكم السَّام واللعنةُ ، قالت : فقال رسولُ اللَّه – صلى الله عليه وسلم – : مهلاً يا عائشةِ إن اللَّه يحب الرِّفْقَ في الأَمر كلِّه ، فقلت : يا رسولَ اللَّه ، ألم تسمع ما قالوا ؟ قال رسولُ اللَّه – صلى الله عليه وسلم – : قد قلتُ : وعليكم " . (أخرجه البخاري رقم ٦٢٥٦ ، ٦٩٢٧ ، ومسلم (٢١٦٥) (١٠) ، والترمذي (٢٧٠١) ، والنسائي في " الكبرى " (١٠٢١٣) و (١١٥٧٢) .

وهذا رغم لؤم اليهود ، وسوء طباعهم ، وتآمرهم على النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وانضمامهم إلى الجبهة الوثنية لمحاربته واقتلاع جذوره .

وبيّن النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – أن النفس الإنسانية لها حرمتها ومكانتها ، أياً كانت ديانتها . فعن عَبْد الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي لَيْلَى قَالَ : كَانَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَقَيْسُ بْنُ سَعْدٍ قَاعِدَيْنِ بِالْقَادِسِيَّةِ ، فَمَرُّوا عَلَيْهِمَا بِجَنَازَةٍ ، فَقَامَا ، فَقِيلَ لَهُمَا : إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ أَيْ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَقَالا : إِنَّ النَّبِيَّ

– صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ ، فَقَامَ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهَا جِنَازَةُ يَهُودِيٍّ ، فَقَالَ : أَلَيْسَتْ نَفْسًا ؟ " . (أخرجه البخاري رقم ١٣١٢ ، ومسلم رقم ٩٦١) .

ومشى على التسامح والبر والإحسان أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فعن مجاهد أن عبد الله بن عمرو : ذبحت له شاة في أهله ، فلما جاء قال : أهديتم لجارنا اليهودي ، أهديتم لجارنا اليهودي ؟ سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " . (أخرجه أبوداود رقم ٥١٥٢ ، والترمذي رقم ١٩٤٣ ، والبخاري في " الأدب المفرد " رقم ١٠٥ ، وهو حديث صحيح) .

وعن ابن عباس قال : ردوا السلام على من كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول: (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ). [٤ / النساء: ٨٦]. (أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " رقم ١٠٧ ، وإسناده حسن).

١٣ – الرحمة بخلق الله :

أكد النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – على الرحمة بالخلق كله، حتى البهائم ، فعن مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا – فَقَالَ : " وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا ، رَحِمَكَ اللَّهُ " . (أخرجه الحاكم رقم ٧٥٦٢ ، وأحمد رقم ١٥٥٩٢ ، والبخاري في " الأدب المفرد " (٣٧٣) ، والطبراني في " الكبير " ١٩/ (٤٥) ، وإسناده صحيح) .

وعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – : أن رجلاً أضجع شاة يريد أن يذبحها ، وهو يحد شفرته ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : أتريد أن تميتها موتات هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها " . (أخرجه الحاكم رقم ٧٥٦٣ ، ٧٥٧٠ ، والطبراني في الكبير رقم ١٩١٦ ، وفي الأوسط رقم ٣٥٩٠ ، وهو حديث صحيح) .

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – أخبره : عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عز وجل عنها يوم القيامة ، قيل : يا رسول الله وما حقها ؟ قال : حقها أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي به " و (أخرجه النسائي في الكبرى رقم ٤٨٦٠ ، والحاكم رقم ٧٥٧٤ ، وهو حديث حسن ، وقد تكلم البعض في إسناده) .

وعن عُمَرَ بن يَزِيدَ عن أبيه ، قال : سمعت رَسُولَ اللَّهِ – صلى اللَّهُ عليه وسلم – يقول : ما من أَحَدٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا إِلا عَجَّ يوم الْقِيَامَةِ يقول : يا رَبِّ ، هذا

قَتَلَنِي عَبَثًا ، فَلا هُو انْتَفَعَ بقتلي ، وَلا هُو تَرَكَنِي فَأَعِيشُ فِي أَرْضِكَ " . (أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢/ ٢٤٥ رقم ٦٣٨ ، وقال الهيثمي : " فيه جماعة لم أعرفهم " . (مجمع الزوائد ٤/ ٣٦) .

وعَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ ، قَالَ : سَمِعْتُ الشَّرِيدَ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : " مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا ، عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْهُ يَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّ فُلانًا قَتَلَنِي عَبَثًا ، وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ " . أخرجه أحمد رقم ١٩٤٧٠، والنسائي رقم ٤٤٤٦ ، وفي " الكبرى " (٤٥٣٥) ، (والطبراني (٧٢٤٥) ، وهو حسن لغيره).

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ مِنْ مَنْزِلِهِ ، فَمَرَرْنَا بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ نَصَبُوا طَيْرًا يَرْمُونَهُ ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ . قَالَ : فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا ، " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا " . (أخرجه البخاري (٥٥١٥) ، ومسلم (١٩٥٨) ، والطيالسي (١٨٧٢) ، والنسائي (٤٤٤١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سفر فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة (الحمره طائر) معها فرخان فأخذنا فرخيها ، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش (أي ترفرف) فجاء النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : " من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها " ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال : " من حرق هذه ؟ " قلنا : نحن ، قال : " إنه لاينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار " . (أخرجه أبوداود رقم ٢٦٧٥ ، والبيهقي في " دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة " ، وإسناده صحيح) .

وعنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – ، قَالَ : عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ ، لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلاَ سَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا ، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ" . (أخرجه البخاري رقم ٢٣٦٥ ، ٣٣١٨ ، ٣٤٨٢ ، ومسلم رقم ٢٢٤٢) .

وسهل بن الحنظلية – رضي الله عنه – : قال : " مرَّ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – ببعير قد لَحِقَ ظهرهُ ببطنِهِ ، فقال : اتَّقُوا اللَّهَ فِي هذه البهائمِ المُعْجَمَةِ : فاركبوها صَالِحة ، وَكُلُوهَا صالحة " . (أخرجه أبو داود (١٦٢٩) و (٢٥٤٨) ، وابن خزيمة (٢٣٩١ و ٢٥٤٥) ، وهو حديث صحيح) .

وقد نهى النبي – صلى الله عليه وسلم – عن الإغراء بين البهائم وتحريض بعضها على بعض ، فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – :

قال: " نَهى رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – عن التحريش بين البهائم " . (أخرجه أبو داود (٢٥٦٢) والترمذي (١٧٠٨) ، وهو حديث حسن) .

وبينما كان الغرب يتفرجون على العبيد يفرسهم السباع ، جعلهم النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – إخواناً ، فعن أبي ذَرٍّ أن النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – قال : هُمْ إِخْوَانُكُمْ (أي : الخدم) جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ جَعَلَ اللَّهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلا يُكَلِّفُهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا يَغْلِبُهُ فَإِنْ كَلَّفَهُ مَا يَغْلِبُهُ فَلْيُعِنْهُ عَلَيْهِ " . (أخرجه البخاري رقم ٦٠٥٠ ، ومسلم رقم ١٦٦١) .

وبالجملة ، فإن الإسلام دين الرحمة والعفو والصفح والتسامح والخير والبر والإحسان مع الخلق كله .

١٤ – اعتبار الإنسان بالجوهر لا بالمظهر :

أكد النبي – صلى الله عليه وسلم – على الاعتناء بالجوهر لا بالمظهر ، وبالحقيقة لا بالصورة ، بالقلب لا بالبدن واللسان ، فعن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : يَقُولُ : " أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ " . (أخرجه البخاري رقم ٥٢ ، ومسلم رقم ١٥٩٩) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" . (أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ ، وابنُ حبان (٣٩٤)، وأحمد (٧٨٢٧).

فقيمة الإنسان في نظر نبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – ليست بضخامة أجسامهم ، ولا بمجادة أنسابهم ، ولا بفخامة مظهرهم ، ولا بشهرتهم وعلو مكانتهم بين الناس، إنما قيمتهم عند الله بمقدار ما في قلوبهم من إيمان، وما يثمر إيمانهم من عمل ، وما يصحب عملهم من إخلاص .

فضخامة الأجسام بدون العمل والإخلاص والإيمان لا تغني عن صاحبها ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – : قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يومَ القيامة لا يَزِنُ عِنْدَ اللّه جَنَاحَ بَعُوضةٍ " . (أخرجه البخاري رقم ٤٧٢٩ ، ومسلم رقم ٢٧٨٥) .

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّهُ قَالَ مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ : مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟ فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ ، هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ ، وَإِنْ

قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ ، قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ؟ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا " . (أخرجه البخاري رقم ٥٠٩١ ، ٦٤٤٧ ، وابن ماجة رقم ٤١٢٠) .

والحاصل أن قيمة الإنسان بالإيمان والتقوى .

١٥ – الاهتمام بالاختراع والابتكار :

حث النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – على ابتكار مناهج الخير ، واختراع ما يقدم من تسهيلات للإنسانية ، وما تجود به القرايح والملكات المبدعة من صور العمران ، والإصلاح والتجديد ، في العلم والعمل والفن ، فعن جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ البجلي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا ، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " . (أخرجه مسلم رقم ١٠١٧ ، والطيالسي (٦٧٠) ، وابن حبان (٣٣٠٨) .

فالأصل في الدين الاتباع ، وفي شؤون الدنيا الاختراع والابداع .

١٦ – إنصاف الرأي المخالف :

أكد النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – على أن الرأي المخالف له الحق في الظهور ، والتعبير عن نفسه ، والدفاع عن ذاته ، ما دام صادراً عن تفكير واجتهاد ، ويمثل وجهة نظر معتبرة ، قريبة كانت أم بعيدة . ولا يسوغ الحكم بالإعدام على رأي ، لمجرد أنه يخالفنا .

وقد سن النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – تقدير الرأي المخالف ، والأخذ به إذا ظهر لنا نفعه ، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : كُنَّا قعوداً حولَ رسولِ الله – صلى الله عليه وسلم – ، معنا أبو بكر وعمر في نَفَر ، فقام رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – من بين أظهرنا ، فأبطأ علينا ، فخشينا أن يُقْتَطَع دوننا ، وفزعنا فكنتُ أولَ من فَزِع ، فخرجتُ أبتغي رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – ، حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار ، فدُرْت به هل أجد له باباً ؟ فلم أجد ، فإذا رَبيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة –

والربيع : الجدول – قال : فاحتفزتُ ، فدخلتُ على رسولِ اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – ، فقال : أبو هريرة ؟ فقلت : نعم يا رسول اللّه ، قال : ما شأنُك ؟ قلت : كنتَ بين أظهرنا ، فقمتَ فأبطأتَ علينا ، فخشينا أن تُقتَطع دوننا ، ففزعنا ، فكنتُ أولَ من فَزِعَ ، فأتيتُ هذا الحائط ، فاحتفزتُ (تضاممت وتجمعت) كما يحتفز الثعلب ، فدخلتُ وهؤلاء الناس ورائي ، فقال : يا أبا هريرة – وأعطاني نعليه – فقال : اذهب بنعليَّ هاتين ، فمن لقيكَ من وراءِ هذا الحائط يشهدُ أن لا إله إلا اللّه ، مستيقناً بها قلبُه ، فبشِّره بالجنة ، فكان أولَ من لقيتُ عمر ، فقال : ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ قلتُ : هاتان نعلا رسولِ اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – بعثني بهما من لقيتُ يشهد أن لا إله إلا اللّه مستيقناً بها قلبُه بشَّرتُه بالجنة ، فضربَ عمر بين ثديَيَّ ، فخررتُ لإسْتي ، فقال : ارجع يا أبا هريرة ، فرجعتُ إلى رسولِ اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – ، فأجهشْتُ بالبكاء ، وركبني عمر ، فإذا هو على أثري ، فقال رسولُ اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : ما لك يا أبا هريرة ؟ فقلتُ : لقيتُ عمر ، فأخبرتُه بالذي بعثتني به ، فضرب بين ثَدْيَيَّ ضربة خرَرْتُ لإسْتي ، فقال : ارجع ، قال رسولُ اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : يا عمر، ما حملك على ما فعلتَ ؟ قال: يا رسول اللّه، بأبي أنت وأمي ، أبعثتَ أبا هريرة بنعليك من لقي يشهدُ أن لا إله إلا اللّه مستيقناً بها قلبُه بشَّره بالجنة ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفعل ، فإني أخشى أن يتَّكِلَ الناسُ عليها ، فخلِّهم يعملون ، فقال رسولُ اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – : " فخلِّهم " . (أخرجه مسلم رقم ٣١ ، وابن حبان رقم ٤٥٤٣) .

فألغى النبي – صلى اللّه عليه وسلم – أمره الأول ، استحساناً لرأي عمر : أن الناس قد يفهمون هذه البشرى فهماً قاصراً ، ويتكلون على مجرد الشهادة ، و يهملون العمل ، ولهذا أخذ بمشورة عمر ، وقال : " فخلهم " .

وزكى الرسول الكريم – صلى اللّه عليه وسلم – الاجتهاد ، واستفراغ الوسع في طلب الحقيقة ، وأعلن مثوبة المجتهد المخطئ ، فعن عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ، ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ " . (أخرجه البخاري رقم ٧٣٥٢ ، ومسلم رقم ١٧١٦) .

ومشى الصحابة على اقتداء النبي – صلى اللّه عليه وسلم – في تقدير الرأي المخالف ، فعن عبد اللّه بن مصعب ، قال : قال عمر بن الخطاب : لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي العصبة ، يعني : يزيد بن الحصين الحارثي ، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال .

فقامت امرأة من صف النساء طويلة فيها فطس (انخفاض قصبة الأنف) فقالت : ما ذاك لك .

قال : ولم ؟

قالت : لأن الله – عز وجل – يقول: { وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا } [النساء : ٢٠] فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ " . (أخرجه أبوداود رقم ٢١٠٦ ، والترمذي رقم ١١١٤ ، والدارمي رقم ٢٢٠٠ ، والطيالسي في مسنده ٦٤ ، وعبد الرزاق في المصنف ١٠٣٩٩ –١٠٤٠٠ ، وابن أبي شيبة في المصنف ١٦٣٧١ – ٦٣٧٢ ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم ٥٠٦ ، وهو أثر حسن) .

والحاصل أن الإنصاف في الرأي يؤدي إلى بركة العلم .

١٧ – الارتباط بالله تعالى :

الحضارة التي أقامها الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، هي حضارة تصل الإنسان بالله ، وتربط الأرض بالسماء ، وتجعل الدنيا للآخرة ، وتمزج الروح بالمادة ، وتوازن بين العقل والقلب ، وتجمع بين العلم والإيمان ، وتحرص على السمو الأخلاقي ، حرصها على الرقي المادي ، فهي ليست كغيرها من الحضارات الأخرى ، التي تعنى أكثر ما تعنى بالجانب المادي من الحياة ، والجانب الجسدي والغريزي من الإنسان ، واللذات العاجلة من الدنيا ، فتجعل الدنيا أكبر همها ومبلغ علمها ، ولم تجعل لله مكاناً مذكوراً في فلسفتها ، ولا للآخرة مجالاً في نظامها الفكري والتعليمي .

فالاستمتاع بطيبات الدنيا وملذاتها ليس محظوراً في نظر نبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – ، ولكن الانهماك فيها بحيث يجعلها غاية للحياة مذموم ، فعن : عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الأَنْصَارِيَّ – وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ ، وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا – أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ صَالَحَ أَهْلَ الْبَحْرَيْنِ ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ الْعَلاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنْ الْبَحْرَيْنِ ، فَسَمِعَتْ الأَنْصَارُ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ ، فَوَافَتْ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، فَلَمَّا صَلَّى بِهِمْ الْفَجْرَ ، انْصَرَفَ ، فَتَعَرَّضُوا لَهُ ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حِينَ رَآهُمْ ، وَقَالَ : أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ ، قَالُوا : أَجَلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ ، فَوَاللَّهِ لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا

بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ " . (أخرجه البخاري رقم ٣١٥٨ ، ٤٠١٥ ، ٦٤٢٥) .

وعن أبي سعيد الخدري : عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء " . (أخرجه مسلم رقم ٢٧٤٢) .

فالمال وسيلة جيدة للعبد الصالح ، حيث قال – صلى الله عليه وسلم – لعمرو بن العاص : " يا عمرو نعم المال الصالح للمرء الصالح " . (أخرجه البخاري في " الأدب المفرد " رقم ٢٩٩ ، والبيهقي في " الشعب " رقم ١٢٤٨ ، وأحمد رقم ١٧٧٦٣ ، وإسناده صحيح) . ولكن الأصل غنى القلب ، فعن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ليس الغنى عن كثرة العرض (الْعَرَض : متاع الدنيا) ، ولكن الغنى غنى النفس " . (أخرجه البخاري رقم ٦٤٤٦ ، ومسلم رقم ١٠٥١ ، ومعنى الحديث : الغنى المحمود غنى النفس وشبعها وقلة حرصها ، لا كثرة المال مع الحرص على الزيادة ؛ لأن من كان طالباً للزيادة لم يستغن بما معه فليس له غنى) .

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من جعل الهموم هماً واحداً ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك " . (أخرجه الحاكم رقم ٣٦٥٨ ، ٧٩٣٤ ، وابن ماجة رقم ٤١٠٦ ، وهو حديث حسن) .

فعمارة الأرض وعبادة الله هي الغاية من وجود الإنسان .

وبالجملة ، فإن القيم الحضارية التي قدمها النبي – صلى الله عليه وسلم – هي قيم حضارية روحية مادية ، مثالية واقعية ، ربانية إنسانية ، أخلاقية عمرانية ، فردية جماعية ، متوازنة معتدلة ، بالالتزام بها تسعد الإنسانية ، وتنحل مشاكلها ، وتفوز في الدنيا والآخرة . فما أمس الحاجة إلى أن تعود البشرية إلى التحلي بالقيم الحضارية التي وردت في الشريعة الإسلامية الخالدة ، وأن تبعد عن الحضارات الجوفاء التي منحتها خواء في الروح ، وإفلاساً في الأخلاق ، وعوزاً في المواساة الإنسانية .

وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبارك .

إطلاق كلمة " المُسْنِد " في مصطلح الحديث

(الحلقة الأولى)

الأستاذ أبو أنس رفيع الله المروتي *

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

فلا غرو أن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم – بعد كلام الله (عز وجل) أحسن ما نطق به ناطق ؛ وأفضل ما سمعه سامع ، لم يتكلم بأفصح مما نطق به لسان ، ولم يسمع بأبلغ مما سمعته آذان ؛ ما من أحد يوازي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الكلام ترتيباً وتنسيقاً ، أو يضاهي كلامه حسناً وتزييناً ، إنه كلام رسول الله – عليه الصلاة والسلام – الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، إنه يفسر القرآن ، ويمثل المصدر الثاني في تشريع الأحكام ، ويشكل سفينة النجاة بعد الفرقان ؛ فقد تفانى صحبه – عليه السلام – أولاً ثم المحدثون جيلاً بعد جيل في سبيل ضبط أقواله وأفعاله ، واعتقاداته وأخلاقه ، وسكوته عند قول الغير وفعله ، بل وحركاته وسكناته في يقظته ومنامه ، وبذلوا في سبيل ذلك قصارى جهودهم وأفضل ما في وسعهم ، وأنفقوا غاليهم ونفيسهم ، فمنهم من سمع الحديث في صغره ونعومة أظفاره من الشيوخ الكبار والأئمة الأبرار ، وعكف عليه واشتغل به ، ثم طال عمره ومات أقرانه ، فأصبح شيخاً لإسناد ، وانتهى إليه علو الإسناد ، وازدحم عليه طلبة الحديث من عامة البلاد ، ألحق الأصاغر بالأكابر ، وملأ الطروس بذكر تمليه ألسنة الأقلام في أفواه المحابر ، وساوى بين شباب تسامى للعلا وكهول ، وجاء بأصح الأسانيد إلا أنها لا تطول ، حتى لُقّب بمثل المسند ، ومسند الدنيا .

---

* الأستاذ المشارك في قسم التخصص في الأدب العربي بجامعة ابن عباس – رضي الله عنهما – (كراتشي) .

ولكن رغم ذلك تراجمهم في كتب الرجال منتشرة ، وتحت أكمام الغبار مدفنة ، لا يجد الباحث كتاباً يجمعهم ، أو رسالة سلَّط فيه أهل الفن على هذا المصطلح أنوارهم ، بما يشبع ويسمن ويغني من جوع ، وما ذُكِرَ في تعريف " المُسْنِد " ، قاصر في التعبير عن منزلتهم المرموقة وغير مجدٍ ، وما دعتني إلى جمع الموصوفين بهذا اللقب إلا نفس الحرقة ، فسردت تراجمهم ، ودرست أحوالهم ، فبعون الله – عز وجل – تم التوصل إلى نتائج مبتدعة ، ونكات مبتكرة مع الاعتراف بأن بضاعتي في هذا الفن مزجاة ، وإن قلمي لم يزل مقيداً بقيود مرخاة ، فأسأل الله تعالى أن يلهمني السداد والرشاد ، وأن ينفع بهذه المقالة العباد الخاصة والعامة في سائر البلاد آمين .

المسند لغة :

السند : مَا ارتفع من الأرض في قُبُل الْجبل أو الوادي ، والجمع أسناد ، لا يكسّر على غير ذلك ، وأَسند الحديث : رفعه ، والإسناد في الحديث : رفعه إلى قائله [1] ، والمسند بكسر النون اسم فاعل من أَسْنَدَ – رباعياً – الحديثَ إذا رواه بإسناده . والمُسْنَدي بفتحها اسم مفعول ، منه أبو جعفر عبدالله بن محمد بن عبدالله المسندي الجعفي البخاري (٢٢٨هـ) شيخ البخاري [2] . قال الحاكم : سمي المُسْنَدي لأنه أول من جمع مسند الصحابة بما وراء النهر [3] . وقال الحافظ الخطيب : قيل له المسندي لأنه كان يطلب الأحاديث المسندة ، ويرغب عن المقاطيع والمراسيل [4] . وصيغة

[1] ابن منظور ؛ لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، المعروف بابن منظور (المتوفى : ٧١١هـ) دار صادر ، بيروت ، ط : (الثالثة – ١٤١٤هـ) ، ٢٢٠/٣ .

[2] ابن عمار ، مفتاح السعيدية في شرح الألفية الحديثية ، شمس الدين محمد بن عمار بن محمد المصري المالكي (ت ٨٤٤هـ) ، تحقيق : د . شادي بن محمد ، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية ، صنعاء اليمن ، ط : الأولى (١٤٣٢هـ – ٢٠١١م) ، ص ٣٠

[3] ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ، مطبعة دائرة المعارف النظامية ، الهند ، ط : الأولى (١٣٢٦هـ) ، ٩/٦ .

[4] الخطيب ، تاريخ بغداد ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ، المحقق : الدكتور بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ط : الأولى (١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م) ، ٢٥٧/١١ .

المفعول تؤيِّد قول الحاكم .

المسند اصطلاحاً :

تعريف المسند المذكور في كتب مصطلح أهل الأثر ما يلي :

قال عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي (المتوفى : ٩١١هـ) : المسند بكسر النون ، وهو من يروي الحديث بإسناده ، سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية ، وأما المحدث فهو أرفع منه [١]

وقال محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى : ١٤٠٣هـ) عند ما كان بصدد بيان " ألقاب المشتغلين بالحديث " : الراوي : أو " المسنِد " هو ناقل الحديث بالإسناد سواءً كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد الرواية [٢] .

وقال أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام المباركفوري (ت ١٤١٤هـ) : المسند : بكسر النون ، هو من يروي الحديث بسنده سواءً كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد روايته ، وتميز في ذلك حتى اشتهر فيه [٣] .

وقال حسن محمد أيوب (المتوفى : ١٤٢٩هـ) : المسند – بكسر النون – وهو الذي يقتصر على سماع الأحاديث وإسماعها ، من غير معرفة بعلومها أو إتقان لها ، وهو الرواية فقط [٤] .

إن هذه التعريفات التي ذُكِرت متقاربةً تقريباً ، وهي تتحدَّث عن ثلاثة أمور :

---

[١] السيوطي ؛ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) ، حققه : أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ، دار طيبة ، ٣٠/١ .

[٢] أبو شهبة ؛ الوسيط في علوم ومصطلح الحديث ، محمد بن محمد (ت ١٤٠٣هـ) ، دار الفكر العربي ص ١٩ .

[٣] المباركفوري ، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ،أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام (ت ١٤١٤هـ) ،إدارة البحوث العلمية والدعوة بنارس الهند ، ط : الثالثة (١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م) ، ٣٩٧/١ .

[٤] الحديث في علوم القرآن والحديث ، حسن محمد أيوب (ت ١٤٢٩هـ) ،دار السلام – الإسكندرية ، ط : الثانية (١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م) ص ١٦٩ .

١. أن المسند من ألقاب الرواية كما أشار إليه الشيخ حسن محمد أيوب .
٢. المسند أدنى من المحدث كما قال الحافظ السيوطي .
٣. وظيفة المسند رواية الحديث بالإسناد والاعتناء بالأحاديث المسندة حتى يتميز فيها ، ويشتهر فيها ، وإن لم يكن عارفاً بعلوم الحديث ولم يتقنها .

ولكن عند ما تَقَلَّبْتُ كتب الرجال وتصفَّحتُها ، وتنقَّبت عن من لُقِّب بـ " المسنِد " ، وجمعتهم من المراجع الأربعة للوهلة الأولى وهي : (الوافي بالوفيات) للشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، و (تاريخ الإسلام) لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ) ، و (تذكرة الحفاظ) ، و (سير أعلام النبلاء) لاهتمامهما الأكثر بالألقاب ، ثم تطرقت إلى مصادر أخرى للتوسع ، فسردت تراجمهم ودرستها دراسةً عميقةً ناتجةً ، حتى انكشف علي ما يلي :

إن من أهم الأمور التي تجلَّت لي في غضون هذه الدراسة إن لم يكن أهمها هو أن تعريف المسند الذي ذكره هؤلاء السادة العلماء والأئمة الفضلاء غير معروف عند المتقدمين ، وليس بشائع عند المتأخرين إلى نهاية القرن الثامن مع أنه لُقِّب بـ " المسند " من هو معدود من المتقدمين ، وجمع غفير من المتأخرين ؛ فهذا العلامة صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى : ٧٦٤هـ) يقول في تعريف المسند في مقدمة كتابه الفحل (الوافي بالوفيات ٤٧/١) : " الْمسنِد فِي من عُمِّر وَأَكْثر الرِّوَايَة " .

وأزيدك معلومة هي من الأهمية بمكان ، وهي أن الشيوخ الذين ذكروا تعريف المسند المعروف ، كلهم عالة على الحافظ زين الدين العراقي ؛ فإنه نظَّم منظومته الشهيرة (التبصرة والتذكرة) وقال فيها :

نظمتها تبصرة للمبتدي تذكرة للمنتهي والمسند

ثم شرحها ، وعند ما كان بصدد شرح هذا البيت ذكر معنى المسند اللغوي وإن لم يتعرض لتعريفه الاصطلاحي ، فقال : المسنِدُ لغة :

بكسرِ النونِ فاعلُ أسندَ الحديثَ ، أي : رواهُ بإسنادِهِ [1] .

فكل من جاء بعده وشرح منظومته اضطر إلى تعريف المسند ، واستند في الجزء الأول " الذي يروي الحديث بالإسناد " إلى قول العراقي ، أو ارتشفه من قول الحافظ الخطيب البغدادي في أبي جعفر عبدالله بن محمد بن عبدالله المسندي الجعفي البخاري (٢٢٨هـ) :

" سمي بالمسندي لأنه كان يطلب الأحاديث المسندة ، ويرغب عن المقاطيع والمراسيل [2] ، وزاد عليه بعبارته ما فحواه " سواءً كان عالماً بعلوم الحديث أو لم يكن " ، فمنذ ذلك الحين ذاع التعريف في كتب مصطلح الحديث .

مناقشة التعريف :

سأقتحم ثمة مناقشة التعريف المعروف المذكور أعلاه ، وإن كانت هذه مغامرةً علميةً مستعصيةً بالنسبة لي ، فأقول : إن التعريف المشهور يحتوي على جزئين :

١. الذي يروي الحديث بالإسناد .
٢. سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية .

أما كون المدار في التلقيب بـ " المسند " على الاعتناء بالمسندات ، ورواية الحديث بالإسناد فقط ففيه نظر ؛ فإن أبا محمد عبدالله بن مظاهر الأصبهاني (ت٣٠٤هـ) كان اعتنى بالمسندات إلى أن حفظ الأحاديث المسندة بحذافيرها ، ثم بدأ بحفظ فتاوى الصحابة ؛ قال الحافظ الذهبي : " بلغنا أنه حفظ " المسند " جميعه ، ثم شرع في حفظ أقوال الصحابة " [3] .

---

[1] شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي) ، لأبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن العراقي (ت ٨٠٦هـ) ، المحقق عبد اللطيف الهميم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط : الأولى (١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م) ٧٤/١ .

[2] السمعاني ؛ الأنساب أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ، المحقق : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي وغيره ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، ط : الأولى (١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م) ٢٦٥/١٢ .

[3] سير أعلام النبلاء لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ) ، المحقق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط : الثالثة (١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م) ٣٤٤/١١ .

فلو كان المدار في التلقيب بهذا اللقب على ذلك لكان أولى بأن يسمى بـ" المسند " ولكنه على الرغم من ذلك لم يلقب به ؛ وذلك لأنه مات شاباً .

وزد على ذلك أن المحدثين قد جرت عادتهم أنهم لا يُلَقِّبون الراوي بلقب إلا لمزية يمتاز بها عن غيره ، وأن رواية الحديث بالإسناد فحسب دون معرفة أنواع علوم الحديث المتنوعة وإتقانها ليست مزية تُمَيِّزُه عن من سواه ؛ فإن كل محدث مسند إذا روى الحديث بسنده ، وكذلك رواية الحديث بالإسناد فقط ليس أمراً عظيماً إلى أن يلقب الراوي لأجله بألقاب مرموقة رفيعة الشأن مثل : مسند العالم ، ومسند الدنيا ، ومسند العصر ، ومسند الآفاق ، وما عداها ، وأن يشد طلبة الحديث رحالهم من أصقاع الأرض وبقاعها ، ومن مشارقها ومغاربها ، بل لا بد للوصول إلى هذه المنزلة أن يطول عمره ويتفرد بأن يموت أقرانه ؛ ولذا قال الصفدي : " من عمرٍ " .

أما الجزء الثاني من التعريف : " سواءً كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد روايته " فهو يشتمل على صورتين : أولاهما : أن يكون عالماً بالحديث وعلومه . وثانيتهما : أن يكون متجرداً عن علم الحديث ومعرفة علومه .

وسأذكر لإثبات الأولى ما يدل على أن الراوي يكون مسنداً ومحدثاً ، بل ومسنداً ومفيداً ، بل ومسنداً وحافظاً ، بل ومسنداً وأمير المؤمنين في الحديث ، وسأسرد الأمثلة بالترتيب ؛ لأن بالمثال يتضح المقال : فهذا الحسن بن عرفة بن يزيد العبدي أبو علي البغدادِي (م ١٥٠هـ – ٢٥٧هـ) وصفه الحافظ الذهبي بـ " الإمام المحدث المسند أبو جعفر المزني الكوْفي ، وقال : وكان من علماء الحديث [١] .

ومحمد بن الفيض بن محمد بن الفياض ، أبو الحسن الغساني ، الدّمشقي (م ٢١٩هـ – ت ٣١٥هـ) حلاه الحافظ الذهبي بـ " المحدث ، المعمر ، المسند ، وقال : وكان صاحب حديث ومعرفة [٢] .

وهذا القطيعي أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن حسين (م ٥٤٦هـ – ت ٦٣٤هـ) نعته الحافظ الذهبي بـ " الشيخ ، العالم ، المحدث ، المفيد ،

[١] سيرأعلام النبلاء ٧٨/٨ .
[٢] المصدر السابق ٢٦١/١١ .

المؤرخ ، المعمر ، مسند العراق ، شيخ المستنصرية [1] .

وأبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون بن محمد النرسي ، الكوفي ، المقرئ ، (م ٤٢٤هـ – ت٥١٠هـ) لقّبه الحافظ الذهبي بـ " الشيخ ، الإمام ، الحافظ ، المفيد ، المسند ، محدث الكوفة [2] .

وهذا علي بن الجعد أبو الحسن الهاشمي الجوهري (م ١٣٤هـ – ت ٢٣٠هـ) ذكره الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ ، وقال عنه : الحافظ الثبت المسند شيخ بغداد العدني الحافظ المسند . وقال عبدوس النيسابوري : ما أعلم أني رأيت أحفظ من علي بن الجعد [3] .

وهذا أبو محمد عبد الله الرّحمن بن علي الديبع الشيباني العبدري وجيه الدين الشافعي (م ٨٦٦هـ – ٩٤٤هـ) وهو الشيخ الإمام الحافظ الْحجة المتقن الإمام أمير المؤمنين فِي حديث سيد المرسلين ، حلاه محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس (المتوفى : ١٠٣٨هـ) بـ " مُسْنِد الدُّنْيَا " وقال : كان تالياً لكتاب الله تعالى عارفاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] .

فاتضح مما سبق أنه ليس بضروري أن يكون المسند متجرِّداً من معرفة علوم الحديث وإدراك معانيه ودقائقه ، وليس هناك أي منافاة بين توصيف الراوي بالمسند وبين توصيفه بالمحدث ، وبالمفيد ، وبالحافظ ، وبأمير المؤمنين في الحديث ، بل يمكن الجمع بين التوصيف بالمسند وبين التوصيف بالألقاب المذكورة لأن الحيثيات مختلفة و سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

وسأذكر في الرد على كون المسند متجرداً من معرفة الحديث :

---

[1] المصدر السابق ٨/٢٣ .

[2] المصدر السابق ١٩ ج : ٢٧٤ .

[3] تذكرة الحفاظ للذهبي ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط : الأولى (١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) ، ٦٥/٢ .

[4] العيدروس ؛ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (ت ١٠٣٨هـ) ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط : الأولى (١٤٠٥) ١ ج : ٩١ .

قول الحافظ العراقي في منظومته :

نظمتها تبصرة للمبتدي تذكرة للمنتهي والمسند

لأن الحافظ العراقي لم يجعل هذا الكتاب (التبصرة والتذكرة) تبصرة للمسند مثل المبتدي حتى يتبصر به ما لم يعلمه ، ويتعلم به ما لم يحصل عليه من أنواع علوم الحديث المذكورة في الكتاب ، بل جعله تذكرة لهم مثل المنتهي ، وهذا دليل ناطق على أنه أراد بقوله هذا أن المسند يكون عارفاً بالحديث وعلومه ، وعالماً بما ذُكِر في الكتاب ، وحاجته إلى هذا الكتاب أن يتذكر به ما علمه وغفل عنه مثل المنتهي ، أما إذا قلنا : إن المسند يكون متجرداً عن هذه المعرفة ، ويتبصر بما لا يعرفه ، فأصبح هذا الكتاب تبصرة بالنسبة له بدلاً عن أن يكون تذكرة ، وهذا ما يرضى به القائل .

تعريف المسند عند العلامة الصفدي :

عرَّف العلامة الشيخ خليل بن أيبك الصفدي المُسنِدَ في مقدمة كتابه (الوافي بالوفيات ٤٧/١) : بـ " المُسند من : عُمِّر وَأَكْثَر الرِّوَايَة " .

ولكن بعد شق عباب كتب الرجال والخوض في غمارها ، وجمع المسندين من لججها وأعماقها بعد أن كانت تراجمهم مبعثرة في ثناياها وبطونها ، أقول :

إن تعريف الشيخ الصفدي أقرب إلى الصواب بالنسبة إلى التعريف المعروف ، وإنه كاد أن يعبر عن منزلة المسندين السامية بتمامها ، إلا أنه ناقص ؛ فإن الشيخ الصفدي ذكر في هذا التعريف أمرين : (١) طول العمر . و (٢) كثرة الرواية ، ولكن هذان الشرطان لا يكفيان لتوصيف الشيخ بـ " المُسنِدِ " بل لا بد من شرط ثالث سيأتي ذكره ، وستنفض الغبار عن هذا الدعوى أقوال الحافظ الذهبي التي ذكرها في الرواة ، التالي ذكرهم :

محمد بن يوسف بن بشر الهروي الحافظ ، الصادق ، الرحال ، أبو عبدالله الشافعي ، الفقيه (م ٢٣٠هـ – ت٣٣٠هـ) ، قال عنه الذهبي : " وإنما

طلب هذا الشأن في الكهولة ، ولو أنه سمع في حداثته لصار أسند أهل زمانه [1]

حمزة بن محمد بن علي ، أبو يعلى ، الهاشمي (م ٤٠٧هـ – ت ٥٠٤هـ) ، قال الحافظ الذهبي عنه : " ولو أنّ حمزة سُمّع في صغره مثل أخيه طِراد ، لسمع من أبي الحسين بن بشران ، وهلال الحفّار ، ولصار مسند الدنيا في عصره ، وأنا أتعجّب كيف لم يسمّعوه ؟ [2] .

جمال الدين ، أبو المحامد محمود بن أحمد بن عبد السيد البخاري ، الحصيري ، التاجري ، الحنفي (م ٥٤٦هـ – ٦٣٦هـ) قال عنه الحافظ الذهبي : " ولد سنة ست وأربعين وخمس مائة ، ولو أنه سمع في صباه لصار مسند زمانه ، ولكنه سمع في الكهولة [3] .

عبدُ القادر بن عثمان بن أَبي البركات التميمي ، أبو محمد البغدادي (م ٥٣٥هـ – ت ٦٣٦هـ) قال عنه الحافظ الذهبي : " ولو سمَّعَه أبوه (أي في صغره) لصار مسند الدّنيا ؛ فإنّه أدرك إجازة القاضي أبي بكر محمَّد بن عبد الباقي الأنصاري ، وأبي القاسم ابن السَّمَرْقَنْديّ ، وأدركُ السماع من أصحاب أَبي جعْفَر ابن المُسْلِمَة ، وابن هَزَارْمَرْد الصريفينيّ ، ولكن ذهبَ تعميرُه ضَياعًا [4] .

الجبريلي أبو أحمد أسعد بن بلدرك بن أبي اللقاء الشيخ ، المعمر ، أبو أحمد أسعد بن بلدرك بن أبي اللقاء الجبريلي ، (م ٤٧٠هـ – ت ٥٧٤هـ) قال عنه الذهبي : " سمع – وهو كبير – من : أبي الخطاب بن الجراح ، وأبي الحسن بن العلاف [5] . وقال عنه في (العبر) : " ولو سمع في صغره لبقي مسند العالم " [6] .

ومن هذه التراجم وأقوال الحافظ الذهبي فيهم يمكننا أن

---

[1] سير أعلام النبلاء ١٥/٢٥٣ .
[2] تاريخ الإسلام ١١/٥٠ .
[3] سير أعلام النبلاء ٢٣/٥٣ .
[4] تاريخ الإسلام ١٤/٢١٥ .
[5] سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٧٨ .
[6] العبر في خبر من غبر للذهبي ، المحقق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ٣/٦٥ .

نستشف أمرين :

١. هؤلاء الشيوخ الأفاضل والأجلاء كانت أعمارهم طويلةً ، البعض منهم عمره تسعون سنة ، والبعض منهم عمِّر سبعاً وتسعين سنة ، وأما عبد القادر ، والجبريلي فقد تجاوزا المئة ، ولكن مع ذلك لم يفدهم طول أعمارهم من حيث أن يدركوا الأسانيد العالية ، بل وقال الحافظ الذهبي في الثالث : " ذهبَ تعميرُه ضَياعاً " . فإن هؤلاء الأئمة الأماثل أدركوا المحدثين الكبار ، وأدركوا زمن السماع منهم ، ولكن لعدم السماع منهم في نعومة أظفارهم لم يصلوا إلى هذه المنزلة المرموقة ولم يصبحوا مسندين ، فعلم من هذا أن إدراك الشيوخ ، والسماع منهم في الصغر أو الإجازة شرط مع طول العمر وكثرة الرواية ، وزدت عليه الإجازة لأن محمد بن سعيد بن أحمد بن زرقون (م ٥٠٢هـ – ت ٥٨٦هـ) لقب بـ " المسند " بما أجاز له أبو عبدالله أحمد بن محمد الخولانيراوي (الموطأ) عام اثنين وخمس مأة ، وفيها ولد ، وتفرد في وقته عنه ، فارتحل الناس إليه لعلوه [١] .

٢. قصد الحافظ الذهبي بقوله في محمد بن يوسف الهروي : " وإنما طلب هذا الشأن في الكهولة ، ولو أنه سمع في حداثته لصار أسند أهل زمانه " . أي أسند أهل زمانه علواً لا التزاماً بالمسندات كما يذكر في تعريف المسند المعروف ؛ لأن الحافظ الذهبي ذكر في ترجمة القفا لأبي بكر عبدالله بن أحمد بن عبدالله المروزي : " ابتدأ بطلب العلم وقد صار ابن ثلاثين سنةً ، فترك صنعته ، وأقبل على العلم ، مات في سنة سبع عشرة وأربع مأة في جمادى الآخرة ، وله من العمر تسعون سنةً ، وسماعاته نازلة ، لأنه سمع في الكهولة وقبلها " [٢] .

وسبب كون سماعات أبي بكر القفال نازلة هو نفس السبب الذي حال بين محمد بن يوسف الهروي وبين كونه أسند أهل زمانه وهو

---

[١] سير أعلام النبلاء ٢١/١٤٧ .
[٢] المصدر السابق ١٠/٤٠٧ .

عدم السماع في الصغر والسماع في الكهولة ، فقال عن محمد بن يوسف الهروي : " ولو أنه سمع في حداثته لصار أسند أهل زمانه " . وقال في أبي بكر القفال واحد : " سماعاته نازلة " والأشياء تعرف بأضدادها .

وإذا عرفنا هذا يمكن التطرق إلى أن قصد الحافظ الذهبي من قوله : لصار مسند الدنيا ، أو لبقي مسند العالم أنه لو كان يسمع في الصغر أصبح سنده عالياً في الدنيا ، ويدل على ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمة أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (م ٢٦٠هـ – ت ٣٦٠هـ) الموصوف بـ " مسند الدنيا " قصة حكاية الأستاذ ابن العميد يقول : ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها ، حتى شاهدت مذاكرة أبي القاسم الطبراني ، وأبي بكر الجعابي بحضرتي ، فكان الطبراني يغلب أبا بكر بكثرة حفظه ، وكان أبو بكر يغلب بفطنته وذكائه ، حتى ارتفعت أصواتهما ، ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه ، فقال الجعابي : عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي ، فقال : هات ، فقال : حدثنا أبو خليفة الجمحي ، حدثنا سليمان بن أيوب ، وحدث بحديث ، فقال الطبراني : أخبرنا سليمان بن أيوب ، ومن يسمعه أبو خليفة ، فاسمع مني حتى يعلو فيه إسنادك ، فخجل الجعابي ، فوددت أن الوزارة لم تكن ، وكنت أنا الطبراني ، وفرحت كفرحه [1] .

فعلم من هذا أن سند الطبراني كان أعلى في الدنيا آنذاك ، ولذا سمي بـ " مسند الدنيا " ؛ فنظراً إلى ما ذكره الشيخ الصفدي وإلى ما ذُكِرَ زيادة عليه يكون تعريف المسند عند الباحث .

(للبحث صلة)

[1] تذكرة الحفاظ ٣/٨٥ .

المعجمية العربية : وصف ونشأة وأنواع

(الحلقة الأولى)

د . قمر شعبان الندوي *

الملخص :

المعجمية هي : فن صناعة المعجم أو التأليف المعجمي ، وقد وضعت للمجموعة اللغوية التي تعالج مفردات اللغة العربية شرحاً ، واشتقاقاً ، وحلاً لغوياً ، وبياناً للتطور الحضاري والثقافي والديني والسياسي مصطلحات عديدة على مر العصور من غريب القرآن ، وغريب الحديث والمفردات إلى أن شاع وراج المصطلحان : " القاموس " و " المعجم ".

تهدف هذه الدراسة إلى بيان المعنيين : اللغوي والاصطلاحي لهاتين الكلمتين " القاموس والمعجم " مع ذكر وظائف المعجمية العربية ، وما هي أنواع المعاجم العربية التي تم تنويعها على نظام الاشتقاق والأبنية والأصوات في مختلف عصور التاريخ ، وتتوزع الدراسة إلى ثلاثة مباحث : المبحث الأول في وصف المعجمية وبيان الفرق بين القاموس والمعجم ، والمبحث الثاني في وظائف المعجمية ، والمبحث الثالث في أنواع المعاجم العربية .

الكلمات المفتاحية : المعجم ، والقاموس ، واللغوي ، والمعجمي ، والوظيفة ، والأنواع ، والأبنية ، والمعاني ، والموضوعات ، والاصطلاح ، والشرح ، والمنهج ، والاشتقاق ، والنص .

المبحث الأول

المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمتي المعجم والقاموس

كلمة " قاموس " :

يقول الزبيدي في : " تاج العروس من جواهر القاموس " في باب " السين " فصل " القاف " حول مادة : " ق م س " :

* أستاذ مساعد ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة بنارس الهندوسية ، فارانسي ، الهند . E-mail: q.shaban82@gmail.comWeb: www.majmaulbahs.blogspot.com

" قَمَسَ : (القَمس : الغوص) في الماء ، (يقمُس ويقمِس) ، بالضم والكسر ، وكذلك القُموس ، بالضم ، وقد قمس فيه قَمساً وقُموساً : انغط ثم ارتفع ، وكل شيئ ينغط في الماء ، ثم يرتفع فقد قَمَسَ .

(و) القمس : (الغَمس) ، يقال : قمسه هو ، فانقمس ، أي غمسه فيه فانغمس ، (كالإقماس) ، وهي لغة في قمسه (لازم متعد) . (و) القَمس : (الغلبة في الغوص) يقال : قامسته فقمسته .

(والقَموس) ، كصَبور : (بئر تغيب فيها الدِلاء من كثرة مائها) ، نقله الزمخشري وابن عباد . وقمست الدلو في الماء ، إذا غابت فيه ، وهي بئر (بينة القِماس ، بالكسر) .

(و) القِمِّيس (كسكين : البحر) نقله الصاغاني ، عن ابن عباد ، (ج : قماميس) .

(و) القومس : البحر ، عن ابن دريد ، وقيل : هو (معظم ماء البحر ، كالقاموس) ، وفي حديث ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – ، وقد سئل عن المد والجزر : " ملَكٌ موكّل بقاموس البحر ، كلما وضع رجله فيه فاض ، فإذا رفعها غاض " .

(والقاموس : البحر) ، عن ابن دريد " [1] .

وورد في لسان العرب :

" القاموس والقومس : قعر البحر ، وقيل : وسطه ومعظمه . وأصل القمس الغور " [2] .

ويقول الزمخشري :

" قال فلان قولاً بلغ قاموس البحر " [3] .

وجاء في المعجم الوسيط :

" القاموس : البحر العظيم " [4] .

---

[1] راجع : السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس ، بيروت ٢٠٠٧م ، المجلد الثامن ، الجزء السادس عشر ، ص : ٢٠٥ – ٢٠٧ . ومجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، بيروت ١٩٩٩م ، ص : ٥١١ .

[2] ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥م انظر مادة قمس .

[3] الزمخشري : أساس البلاغة ، دار صادر ، ١٩٧٩م ص : ٥٢٢ .

[4] مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، ديوبند بالهند ٢٠٠٠م ، ص : ٧٥٨ .

نستخلص مما مضى أن معنى مادة : " ق م س " في اللغة هو : " البحر " أو " الغوص في البحر " ، أو " قعر البحر وقرارته " ، فإن المعاجم اللغوية عادة تكون على مثابة بحر نظراً إلى استيعابها للمفردات العربية ، وشرح معانيها ، وتوضيح مبانيها وصيغها المختلفة ، فقد سميت لذلك هذه المجموعة : بـ " القاموس " ، فأول من اختار هذه التسمية للدلالة على هذه المجموعة هو : " مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي " في كتابه : " القاموس المحيط " ، لشموله واتساعه ، يقول بطرس البستاني :

" القاموس : البحر ، وأبعد موضع فيه غوراً ، ووسطه ، ومعظمه . والقاموس : كتاب الفيروزآبادي في اللغة العربية ، لقبه بالقاموس المحيط لاتساعه وبعد غوره . ومنه نسمي كل كتاب في اللغة ، ومشتمل على مفرداتها مرتبة على حروف المعجم ، مع ضبطها وتفسير معانيها بالقاموس " [1] .

كلمة " معجم " :

ورد في كتاب " العين " للخليل بن أحمد الفراهيدي في مادة : " عجم " :

" العجم ضد العرب . ورجل أعجمي : ليس بعربي . . . ، وامرأة عجماء : بينة العجمة . والعجماء كل دابة أو بهيمة . . . . ، والأعجم كل كلام ليس بلغة عربية . . . . ، والمعجم حروف الهجاء المقطعة ، لأنها أعجمية . وتعجيم الكتاب : تنقيطه كي تستقيم عجمته ويصحّ " [2] .

ويقول ابن منظور في لسان العرب :

الأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه ، وإن كان عربي النسب . وأعجمت الكتاب : ذهبت به إلى العجمة ، وقالوا : حروف المعجم ، فأضافوا الحروف إلى المعجم . . . . . ، وكتاب معجم إذا أعجمه كاتبه بالنقط " [3] .

وجاء في تاج العروس :

(عجم) (العُجم ، بالتحريك وبالضم : خلاف) العرب . (والأعجم : من لا يفصح) ولا يبين كلامه وإن كان من العرب ، (و) الأعجم : (الأخرس) وهي عجماء . (وأعجم فلان الكلام) ، أي : (ذهب به إلى العجمة)، بالضم

---

[1] بطرس البستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، ١٩٩٣م ، ص : ٧٥٦ .
[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، دارالرشيد للنشر – وزارة الثقافة والإعلام العراقية ، ١٩٨٠م ، ج : ١ ، ص : ٢٣٧ – ٢٣٨ .
[3] راجع لسان العرب ، مادة عجم .

وكل من لم يفصح بشيئ فقد أعجمه " [1] .

مناقشة شروح اللغويين :

تستخدم كلمة " معجم " للدلالة على المجموعة التي تشرح المفردات ، وتبين معانيها ، وتحلل اللغة ، وأبنيتها ، ومشتقاتها ، على الرغم من أن مادة : " ع ج م " تدل على العجمة ، والإبهام ، وعدم الإفصاح . فكيف يمكن أن يصح استخدامها في ذلك ؟ هذه العقدة تنحلّ من شيئين :

الأول : أحد الخصائص أو المعاني لباب الإفعال : " السلب " ، أي سلب معنى المادة ، فكلمة : " فلس " تدل على وجود النقود المالية ، ولكن كلمة : " إفلاس " التي اشتقت من : " ف ل س " تدل على سلب المادة الأصلية ، فهكذا كلمة : " عجم " تدل على الإبهام ، وعدم الإفصاح ، وفي الإعجام سلب هذا المعنى الأصلي ، يقول ابن جني :

" ثم إنهم قالوا : أعجمت الكتاب إذا بينته وأوضحته ، فهو إذاً لسلب معنى الاستبهام لا إثباته " [2] .

الثاني : إن المعاجم تتألف على ترتيب حروف المعجم – وهي حروف الهجاء – ، فنظراً إلى هذا الترتيب ، تصح هذه التسمية للمعجم العربي .

وكذلك نرى أن الكتاب الذي يترتب على حروف المعجم ، يسمى معجماً ، ولا يشترط له أن يعالج شرح مفردات لغة ، ومعانيها ، وبيان أبنيتها ، واشتقاقاتها المختلفة ، فنجد كتباً تتناول سير ، وتراجم الشخصيات ، وتاريخ الأماكن ، والبلدان ، على ترتيب حروف الهجاء تسمى بـ : " المعجم " ، فهذا ياقوت الحموي أسمى كتابه في تاريخ الشخصيات العلمية ، والأدبية بـ : " معجم الأدباء " ، وله كتاب آخر في تاريخ الأماكن والبلدان أسماه : " معجم البلدان " ، وهذا عمر رضا كحالة أسمى كتابه في تاريخ المؤلفين بـ " معجم المؤلفين " . وللحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد اللحمي الطبراني (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م – ٣٦٠هـ/ ٩٧١م) كتابان في تراجم الرجال المشتغلين بالحديث ، أحدهما : " المعجم الكبير " في ٢٥ مجلداً ، وآخرهما : " المعجم الأوسط " في ٧ مجلدات ، وقد ألف الدكتور يحيى مراد " معجم تراجم الشعراء الكبير " .

---

[1] الزبيدي : تاج العروس ، جزء : ٣٣ ، ص : ٣٦ – ٣٧ ، وانظر : الدكتور عدنان الخطيب ،المعجم العربي بين الماضي والحاضر، لبنان، ط: ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص: ١٣

[2] ابن جني : الخصائص ، دار الكتاب العربي ، مصر ١٩٥٧م ، ص : ٣ ، ص : ٧٦ .

ففي ضوء أسماء هذه الكتب يتضح أن هذه الكلمة قد تفيد معنى : " الموسوعة " أيضاً .

أما المعاجم اللغوية فهي عامة تترتب على حروف المعجم يعني حروف الهجاء ، ثم هذه المعاجم اللغوية تشرح الكلمات ، وتبين معانيها ، وتوضح مبانيها ، واشتقاقاتها ، فلذلك نسميها بالمعاجم ، إذ هذه الكلمة جمع لـ " المعجم " التي هي اسم مفعول من الإعجام ، والإعجام بعد سلب معنى مادة : " ع ج م " في الإفعال ، أصبح معناه : الإفصاح ، والإبانة ، والشرح . وقد نقل الزبيدي عن ابن سيده :

" قال ابن سيده : وهو عندي على السلب ، لأن أفعلت وإن كان أصلها الإثبات ، فقد تجيئ للسلب ، كقولهم : أشكيت زيداً ، أي : زُلتُ له عما يشكوه، وقالوا : عجّمتُ الكتابَ،فجاءت فعلتُ (من التفعيل) للسلب أيضاً" [1]

وإن أقدم استعمال لكلمة معجم كان في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ورد في كتب التاريخ أن رجلاً اسمه حُبيش وضع : " كتاب الأغاني على حروف المعجم " للخليفة العباسي المتوكل ، وأن برزخ بن محمد العروضي قد وضع : " كتاب معاني العروض على حروف المعجم " ، ووضع أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى كتاباً أسماه : " معجم الصحابة " ، وألف أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي كتابه : " المعجم الصغير " و " المعجم الكبير " . وفيما بعد أطلقت هذه الكلمة على الكتب اللغوية التي تعالج الألفاظ ومعانيها ، وما يتصل بها [2] .

تصنيف حروف المعجم :

تتصنف حروف المعجم/حروف الهجاء على ثلاثة أنماط :

١. التصنيف الألفبائي ، مثلاً : أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ، وهلم جراً .
٢. التصنيف الأبجدي ، مثلاً : أ ب ج د ، ه و ز ، ح ط ي ، وهلم جراً .
٣. التصنيف الصوتي ، مثلاً : حروف الحلق : ع ح هـ خ غ ق ك . وحروف اللسان والأسنان : ج ش ض ، ص س ز ، ط د ت ، ظ ث ذ ، ر ل ن ، ف ب م . وحروف الهواء : و ا ي ء [3] .

---

[1] تاج العروس : جزء : ٣٣ ، ص : ٣٨ ، وعدنان الخطيب : المعجم العربي بين الماضي والحاضر ، لبنان ، ١٩٩٤م ، ص : ١٣ – ١٥ .

[2] راجع: ديزيره سقال، نشأة المعاجم العربية وتطورها، بيروت، ط: ١، ١٩٩٥م، ص : ١٠

[3] الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين، إيران – قم، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج: ، ص: ٩

نرى أن المعاجم العربية قاطبة ألفت على تصنيفين :

١. التصنيف الصوتي : ألف الخليل بن أحمد الفراهيدي معجمه : " العين " على التصنيف الصوتي ، وإن ثمة معاجم لغوية عربية اتبعت كتاب العين .

٢. التصنيف الألفبائي : مثلاً : أ ب ت ث ج ح خ د ذ وما إلى ذلك ، ألفت أغلبية المعاجم العربية على هذا التصنيف ، أمثال : " تاج اللغة وصحاح العربية " للجوهري ، و " لسان العرب " لابن منظور ، و " تاج العروس من جواهر القاموس " للزبيدي ، و " أساس البلاغة " للزمخشري ، وغيرها من المعاجم اللغوية التي ألفت على التصنيف الألفبائي .

الخلاصة :

من هذه الدراسة الموجزة لكلمتي : " القاموس " و " المعجم " اتضح لنا أن كلمة : " معجم " أشمل وأوسع من كلمة : " القاموس " ، فلا يمكن أن يسمى كل كتاب لغوي يشرح اللغة ، ويفسِّر معانيها ، ويبين أبنيتها بـ " القاموس " إلا إذا كان هذا الكتاب على سعة ، وشمول ، واستيعاب للمجال اللغوي الذي عالجه فيه ، مثلاً نرى الدكتور عبدالله عباس الندوي يسمي كتابه الذي ألفه في شرح المفردات للقرآن الكريم بـ " قاموس ألفاظ القرآن الكريم " (Vocabulary of The Holy Qur'an) (عربي – إنكليزي) ، فالمؤلف حاول في هذا الكتاب أن يعالج المفردات من القرآن الكريم بأجمعها شرحاً ، وتفسيراً ، فإنه إلى حد كبير أصاب في هذه التسمية ، لشمول الكتاب في الموضوع ، وكذلك : " القاموس الوحيد " (عربي – أوردي) للأستاذ وحيد الزمان الكيرانوي بالنسبة إلى اتساعه وشموله لشرح الكلمات ، فهذه تسمية مناسبة إلى حد كبير ، لأنه حوى كمية هائلة للمفردات العربية ، وشرح معانيها على ترتيب معجمي معين من : الثلاثي ، والرباعي ، والخماسي ، والسداسي من الاسم ، والفعل ، والحرف ، وأما المعجم اللغوي (العربي – الإنكليزي) الكبير : " مد القاموس " (An Arabic-English Lexicon) لإيدوارد وليام لين (Edward William Lane) في ٨ مجلدات ، فهو أحق بكثير أن يسمى بهذه التسمية ، لأنه حقاً على مثابة بحر في المجال اللغوي (العربي – الإنكليزي) .

وأما " القاموس الجديد " و " القاموس الاصطلاحي " (عربي – أوردي وبالعكس) لوحيد الزمان الكيرانوي نفسه ، فلا تناسب هذه التسمية ، فإن

هـذه التـسمية بالنـسبة إلى هـذين الكتـابين تـؤدي إلى المغـالاة ، لأنهمـا لا يحتويان إلا على ألف أو ألفين من الكلمة ، ولكن رغم ذلك قد حل مصطلح : " القـاموس " اليـوم ، لكثـرة اسـتخدامه محـل المعجـم الـذي تقابلـه الكلمـة الإنكليزية (Dictionary) .

والحق أن " القاموس " تسمية مجازية للدلالة على أكبر المعاجم اللغوية الشاملة المستوعبة المستقصية جميع ما يتعلق باللغة ، فـ " القاموس المحيط " للفيروزآبادي حقاً موسوعة لغوية عالجت المفردات من القرآن ، والحديث ، والشعر ، والنثر ، والنبات ، والأعلام ، والأماكن ، والحيوان ، فأسماه مؤلفه بهذه التسمية .

وأما مصطلح : " معجم " فيصحّ استعماله على كل كتاب لغوي يؤلف على حروف المعجم ، ويشرح كلمات لغة ما ، مهما كان حجمه ، ومهما كان محتواه ، شمل جميع مفردات اللغة أم لم يشمل .

ولكن رغم هذا وذاك ، أخذ اليوم يتسع نطاق دلالة هذين المصطلحين : " المعجم " ، و " القاموس " ، فدلالة كلمة : " المعجم " ليست محدودة بمجموعة المفـردات ، وشـرح معانيهـا ، وتـصريف أبنيتهـا فحـسب ، بـل أصـبح مطبقـاً للموسـوعات الـتي تتنـاول تـراجم الرجـال ، والشخـصيات ، وتـاريخ الأمـاكن ، والبلدان ، وكذلك طفق يتسع نطاق استخدام مصطلح : " القاموس " أيضاً في العـصر الحاضـر ، لكـل كتـاب عظـيم الـشأن ، واسـع النطـاق ، حتـى يقـول البعض عن شخصية كبيرة : " شخصية قاموسية " ، أما كلمة : " بحر العلوم " فليست غريبة لنـا بالنسبة للأعـلام العظـام ، إذ القـاموس يحتل نفس الدلالـة ، والمفهوم، لأن معناه اللغوي البحر، وعمق البحر، وقرارة البحر، والبحر معظمه.

المبحث الثاني
وظائف المعجم

الوظائف التي تؤديها المعاجم ، وتفيد بها القارئ أم يلزم عليها أن تؤديها، يمكن حصرها فيما يلي :

١. شرح المعنى :

أ. بيـان المعنـى الصـرفي : مـع توضـيح الفـرق الموجـود بـين المعـاني باختلاف الصيغ ، والأبنية ، والوزن للكلمة ، مثلاً : " غفر " و " استغفر " من أصل واحد ، ولكن بينهما فرق واضح في المعنى ، غفر ، معناه : صفح عنه ، وعفا عنه ، واستغفر ، معناه : طلب العفو ، والغفران .

ب. بيان الوظيفة النحوية للكلمة : هل يصلح اللفظ فاعلاً ، أم فعلاً لازماً أم متعدياً إلى مفعول أم مفعولين ، مثلاً : المعجم يبين الفرق بين " خرج " و " أخرج " " خرج " فعل لازم لا يطلب المفعول ، و " أخرج " فعل متعد يطلب مفعولاً واحداً ، وكذلك الفرق بين " عرف " و " علم " عرف يتعدى إلى مفعول ، وعلم إلى مفعولين .

ت. ربط المعنى : ربط المعاني الجزئية بالمعنى العام ، فخذوا على سبيل المثال كلمة " جيش " التي هي تكونت من " ج ي ش " فالمعنى العام في هذه المادة : " الثوران " و " الغليان " فنقول :

i. جاشت قريحة الشاعر أو الأديب .

ii. جاشت القِدر جيشاً .

iii. الجيش : الجماعة التي تجيش في ساحة الوغى [1] .

ث. تمييز المعنى الحقيقي من المعنى المجازي ، كما فعل الزمخشري في كتابه : أساس البلاغة مثلاً : " رحم الله امرءا جعل طاعته جسراً إلى نجاته " [2] .

فالجسر معناه اللغوي : القنطرة ، فطاعة الإنسان لله تعالى احتلت مكان الجسر من مسلك الخيبة إلى درب السلام ، والنجاح .

ج. وضع منهج لمعرفة المعنى المشترك الذي هو : دلالة كلمة واحدة على معان مختلفة تربطها علاقة دلالية ، مثلاً : " العين " ومن مدلولاتها : " عضو البصر " ، و " ينبوع الماء " ، و " الجاسوس " ، و " رئيس الجيش " و " طليعة الجيش " ، و " كبير القوم وشريفهم " [3] . وما إلى ذلك من معان .

والاشتراك في الجمل هو : " دلالة جملة واحدة على معان مختلفة " ، مثلاً : مد أستاذي يده للطلاب . المعنى الواحد لهذه الجملة هو المعنى الظاهر يعني : مد أستاذي يده إلى الطلاب للمصافحة . والمعنى الثاني هو المجازي يعني : مساعدته للطلاب .ومثال آخر : أخي طويل اليد ،

---

[1] انظر : د . سالم سليمان الخماش ، المعجم وعلم الدلالة ، جدة ١٤٢٨هـ ، ص : ١٣ .

[2] الزمخشري : أساس البلاغة ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص : ٩٣ .

[3] انظر : المعجم الوسيط من طباعة الهند بديوبند ٢٠٠٠م ، مادة : " عين " ، ص : ٦٤١

فهي قد تفيد المعنى اللغوي يعني : يده طويلة ، وقد تفيد المعنى المجازي يعني : أخي كثير العطاء ، فهو سخي كريم .
و " فلان طويل النظر " ، لهذه الجملة معنيان : أحدهما : له نظر بعيد المدى ، وله بصيرة ، وفراسة لتقدير الأشياء المجهولة ، وهذا المعنى المجازي .
وأما المعنى الظاهر للجملة ، فهو : هو قوي النظر أو حادّ البصر .

ح. ذكر سياقات الكلمة ، واستخدامها في الجمل ، يعني شرح معنى الكلمة عن طريق بيان استعمالاتها في اللغة .

خ. الشرح بالتعريف المنطقي ، مثلاً : " الإنسان حيوان ناطق " والتعريف المعجمي مثلاً : " السبورة ، خشب مسطح ملموس مطلي يستعمل للكتابة عليها .

د. الشرح بذكر المرادف ، والمضاد ، مثلاً : الترادف في المفردات ، وهو : دلالة العديد من الكلمات المختلفة اللفظ على معنى واحد ، مثلاً :
– عام ، وسنة ، وحول " مدة زمنية طولها اثنا عشر شهراً " .
– صديق ، ورفيق ، وصاحب ، وزميل ، وأنيس ، وجليس ، وخليل .
– كريم ، وجواد ، وسخي .
– حسام ، وسيف ، ومهند ، وفيصل .
وتعريفه في الجمل : دلالة العديد من الجمل المختلفة اللفظ على معنى عامّ واحد ، مثلاً :
– سرق اللصُّ المالَ ، واللصُّ سرق المالَ ، وسُرِق المال باللصّ .
– طابت نفسُ عليٍّ ، وطاب عليٌّ نفساً .
– محمدٌ ، أبوه أديبٌ . وأبو محمد أديب .
وذكر المضاد ، مثلاً : " الإنسانية : خلاف البهيمية " [1] .

ذ. الشرح بالأمثلة الظاهرة ، مثلاً : الأزرق بأنه اللون الذي يشبه لون السماء الصافية .

ر. استخدام الصور ، والرسوم ، مثلاً :

٢. بيان نطق الكلمة :

[1] انظر : المعجم الوسيط ، مادة : أنس ، ص : ٣٠ .

من أهم وظائف المعجم أن يبين الأوجه المختلفة لنطق الكلمة ، وذكر الصحيح ، وغير الصحيح ، وله ثلاث طرق :

أ. ضبط الكلمة بالشكل أي الحركات الثلاث بدقة وإمعان .

ب. النص على ضبط الكلمة ، مثلاً : ضَرَبَ (بفتح الضاد والراء والباء) .

ت. النص على ضبط الكلمة بذكر كلمة على وزنها ، مثلاً : استبشر على وزن استخبر ، واستنصر .

٣. بيان الهجاء/التهجي للكلمة :

كيف تكتب الكلمات ، ومتى يُزاد حرف ، ومتى يُنقص من الكلمة ، وكيف تكتب الهمزة ، والألف الممدودة ، والمقصورة .

٤. التأصيل الاشتقاقي :

بيان أصل الكلمة ، وزياداتها ، وتصاريفها ، وأبنيتها ،

وللاشتقاق أربعة أنواع :

أ. الاشتقاق الصغير (الصرفي) : نحو ، كتب ، وكاتب ، ومكتوب ، وكتابة ، ومكتب ، واستكتب ، وهلم جراً ، وهو : " عبارة عن تصريف الكلمة من الثلاثية إلى كلمات بإضافة الحروف ، ولابد من أن تكون الحروف الأصلية للكلمة موجودة في كل كلمة مشتقة ، كما لا بد أن يكون المعنى الأصلي الجوهري باقياً في كل التصاريف ، وهو : " الكتابة " .

ب. الاشتقاق الكبير : نحو ، أكل ، لكأ ، لأك ، كلأ ، كأل ، ألك ، وهو : " عبارة عن تقليب المادة الثلاثية تقاليب ستة ، تختلف فيها المعاني ، إلا أن المعنى الجوهري يوجد فيها ، ويقال له : " التقليب اللغوي " أيضاً .

وابن جني اصطلح هذا الاشتقاق بـ :" الاشتقاق الأكبر" [1] بدل الكبير .

ت. الاشتقاق الأكبر : وهو الإبدال اللغوي ، ويكون باستبدال حرف من حروف الكلمة الأصلية بحرف آخر ، مع الاحتفاظ بالمعنى الأساسي كلياً أو جزئياً ، مثلاً : نعق ونهق [2] ، قسم وقصم ، خضم وقضم [1] .

---

[1] أبوالفتح عثمان بن جني : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار ، ط : ٢ ، تاريخ ومكان الطباعة غير موجودين ، الجزء : ٢ ، ص : ١٣٣ .

[2] المعنى الأساسي المشترك بينهما : الصياح والصراخ ، جاء في المعجم الوسيط : نعق الراعي بغنمه (ف) نعقاً ونعيقاً ونعاقاً : صاح بها وزجرها . ونهق الحمار (ف) نهقاً ونهيقاً : صوّت .

أ. الاشتقاق الكُبَّار : وهو المعروف بـ : " النحت اللغوي " أيضاً ، وهو : " عبارة عن وضع كلمة من كلمتين أو أكثر ، بأن تأخذ بعض حروف هذه و تلك ، وتصوغ منهما أو منها كلمة واحدة جديدة ، مثلاً : عبشمي ، من عبد الشمس ، وعبقسي من عبد القيس [٣] .

وقد وقع الخلاف في هذا الاشتقاق ، ففي رأي أنيس فريحة [٣] ، إن وضع كلمة من كلمتين أو أكثر ليس بالنحت ، إنما ذلك : " الاختصار " للجمل ، ولكن لم يتفق عليه الدكتور ديزيره سقال في كتابه : " نشأة المعاجم العربية وتطورها " ، والدكتور محمد يوسف حبلص في كتابه : " علم اللسان العربي " ، فإنهما يعدانه نحتاً لغوياً ، وسمياه : " الاشتقاق الكُبَّار " ، يقول الدكتور سقال :

" أما الاشتقاق الكبار فهو النحت، أي توليد كلمة من كلمتين أو أكثر " [٤]

وعند عبد الواحد الوافي ثلاثة اشتقاقات : الصغير ، والكبير ، والأكبر ، وأما الاشتقاق المسمى : بـ " الاشتقاق الكبار " فقد ضمه إلى باب النحت ، وليس عنده اشتقاق بهذه التسمية [٥] .

٥. بيان المعلومات الصرفية والنحوية :

- بيان معاني الصيغ الصرفية .
- ذكر تصريف الفعل الثلاثي المجرد مع ضبط عينه في الماضي والمضارع .
- ذكر جنس الكلمة من الذكور ، والإناث .
- ذكر صيغ جمع التكسير .
- بيان نوع الفعل من حيث التعدي ، واللزوم من أجل الصلات من حروف الجر .

---

[١] والمعنى الأساسي بينها : القطع والفصل بين شيئين ، قسم الشيء (ض) قسماً : جزّأه . وجعله نصفين . وقصم فلان (ض) الشيءَ قصماً : كسره كسراً فيه انفصال . وقضم الشيء (ض) قضماً : كسره بأطراف أسنانه . وخضمه (ض) خضماً : قطعه . وأكله بجميع فمه ، أو بأقصى أضراسه (أنظر : المعجم الوسيط) .

[٢] للتفصيل راجع : دكتور محمد يوسف حبلص ، علم اللسان العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦م/١٤١٦هـ ، ص : ١١٠ – ١١٢ .

[٣] وهو صاحب كتاب في اللغة باسم : في اللغة العربية وبعض مشكلاتها ، وقد ذكره الدكتور ديزيره سقال في كتابه " نشأة المعاجم العربية وتطورها " ص : ٧٧ .

[٤] الدكتور ديزيره سقال : نشأة المعاجم العربية وتطورها ، بيروت ١٩٩٥ ، ص : ٧٧ .

[٥] أنظر : فقه اللغة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ص : ١٧٢ – ١٨٠ .

– تزويد المعجم ببعض القواعد الصرفية القياسية ، وطرق كتابة الهمزة في مقدمة الكتاب ، بالإضافة إلى بعض قواعد التعليل ، وسرد الأفعال المجردة ، والمزيد فيها من : الثلاثي ، والرباعي ، والخماسي ، والسداسي، والملحقات .

– العناية بذكر الشواذ ، والكلمات السماعية ، ومدلولاتها المختلفة .

٦. معلومات عن الاستعمال :

يعني بيان مستويات استعمال اللفظ، من الناحية اللغوية، والأسلوبية، مثلاً:

– القدم ، والحداثة .

– درجة الشيوع للكلمة .

– تقييد الاستخدام ، يعنى هل هو استخدام مقبول ، أم محظور ، أو متروك ؟

– بيان المستوى الثقافي ، والاجتماعي ، يعنى التمييز بين لغة المثقفين ، والعامية، والرسمية ، والفصحى .

– حقل التخصص ، يعنى : الأدب ، أو الثقافة ، أو السياسة ، أو الطب ، أو الهندسة .

– إقليم الاستخدام أي الإشارة إلى إقليم استخدام الكلمة .

٧. معلومات موسوعية :

عامة لا تخلو المعاجم قديمةً كانت أو حديثةً من المعلومات التي تتعلق بالأشياء في العالم الخارجي ، مثلاً :

– الأعلام ، أو الأماكن ، أو الحيوانات ، أو النباتات .

– الأحداث التاريخية ، وجغرافية البلدان .

–بعض المصطلحات العلمية [1] .

هذه بعض الوظائف المعجمية التي يلزم للمعجمي الاعتناء بها عند التأليف المعجمي ، وبدونها ربما تعد المعاجم ناقصةً ذات عيب معجمي ، وعاجزةً عن الإفادة الشاملة الدقيقة .

(للبحث صلة)

[1] للتفصيل عن وظائف المعاجم راجع : د/سالم سليمان الخمّاش ، المعجم وعلم الدلالة ، جدة ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م ، ص : ٨٨ – ٩٣ .

التبادل اللغوي ما بين المنطقتين العربية والهندية

بقلم : د . مخلص الرحمن *

إذا تأملنا تاريخ أي لغة من اللغات في العالم ، رأيناها تسير في انتشارها ونموها ، وتأثرها وتأثيرها سيراً خفياً لا يشعر به أهلها إلا بعد انقضاء مدة طويلة . وفي الحقيقة إنها تتأثر بالعوامل الخارجية بعد اختلاط أصحابها بالأمم الأخرى ، كما أنها تتأثر بالعناصر الداخلية ، وتكتسب من لغاتهم ألفاظاً ومفردات جديدة عن طريق الاحتكاك التجاري والسياسي والثقافي . التأثر والتأثير شأن كل اللغات الحية في العالم ، ولا يمكن تصور تطورها بمنأى عنهما . فاللغة العربية شأنها شأن غيرها من اللغات ، أثرت وتأثرت ، اقترضت من غيرها وأقرضت غيرها . فهذا المقال سيسلط الضوء على التأثيرات اللغوية المتبادلة ما بين المنطقتين العربية والهندية عن طريق العلاقات التجارية والسياسية والثقافية الممتدة عبر قرون عديدة .

العلاقات بين الهند والعرب :

يشير عدد لا بأس به من المؤلفات والمراجع التاريخية إلى أن العلاقات التجارية والاقتصادية كانت توجد بين الهند والعالم العربي منذ ما قبل التاريخ حتى يرى عدد من العلماء أن تاريخ وصول العرب إلى الهند يرجع إلى زمن آدم عليه السلام ويستدلون من هبوطه من الجنة في سيلان (سري لنكا) التي كانت جزءاً من الهند في ذلك الوقت كما أفرد الشيخ غلام آزاد البلغرامي (١٧٠٤ – ١٧٨٥م) فصلاً خاصاً جمع فيه الروايات التي تدل على هذه الحقيقة [١] . ومما لا مراء فيه هو أن العلاقات بين الهند والعالم العربي قد بدأت منذ العهد القديم عن طريق التجارة إذ " كان العرب وحدهم فيما قبل الإسلام ، واسطة مقابضات التجارة

* محاضر ضيف في مركز الدراسات العربية والإفريقية ، جامعة جواهر لال نهرو ، نيو دلهي .

[١] . سبحة المرجان في آثار هندستان ، ص ٥ .

الهندية ما ورد منها براً ، عن طريق بلاد فارس ، فتولاه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانئ الشام ، أو بحراً ، عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر ، فحمله اليمنيون من أبناء سبا القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين في رحلة الشتاء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم " لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ " [1] ليسيروا بدورهم بأكثره في رحلة الصيف إلى بلاد الشام ، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والإغريق بموانئهم على ربح طائل وفير ، هكذا كان العرب في القديم على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها فاختلطوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ليعودوا إلى بلادهم في كل مرة فيدهشوا الناس بما يرونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات ، ويبهروا أنظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها . كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما بها من ثقافات عن طريق المدارس العلمية في أرض الفراتين ، مهد الحضارات القديمة ومجمعها ، التي كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها بضائعها ويفد إليها علماؤها . وقد تخرج على أيدي الهنود بمدرسة جنديسابور الساسانية فريق من العرب ، منهم الحارث بن كلدة الثقفي ، طبيب العرب قبل الإسلام الذي قام على الناس بفارس ، وطبّب بعض سراتها فأعطاه مالاً وجارية هي سمية أم زياد بن أبيه " [2] .

فلا يدل ما سبق إلا على أن العلاقات التجارية كانت قائمة بين القطرين العربي والهندي منذ زمن طويل قبل التاريخ بسبب توافر عوامل ملائمة بينهما وهي الحياة الاجتماعية للعرب وتوافر الأسواق التجارية في مدن السواحل العربية للبضائع الهندية ، ووجود الطرق البرية والبحرية التي كانت تربط بين المنطقطتين العربية والهندية .

أما العلاقات بينهما بعد فجر الإسلام فيشير التاريخ إلى أن العرب

---

[1] . سورة قريش ، الآية ١ – ٢ .

[2] . تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٥٤ – ٥٥ .

قادوا باكورة الحملات الحربية تجاه الأقاليم الشمالية لشبه القارة الهندية في زمن الخلفاء الراشدين حيث جرت عدة محاولات ، ولكن أغلبها كانت ذات طابع استكشافي لمعرفة طبيعة المنطقة لا أكثر .[1] ولكن فتح محمد بن القاسم الثقفي بلاد السند قد شكل منعطفاً تاريخياً في علاقات العرب بالهند إذ جاء الشعب الهندي تحت السيادة العربية مباشرة في المناطق الغربية ، وكان ذلك الفتح فاتحة للعلاقات السياسية والثقافية . ثم استقرت الحكومة والثقافة الإسلامية بشكل رسمي في الأرجاء الهندية ورسخت أقدامها منذ أن بدأ محمود الغزنوي فتوحاته العظيمة في الهند سنة (٣٩٢هـ – ١٠٠١م) . وتوالت حكومات إسلامية عديدة في الهند من الغزنويين (٩٩٧ – ١١٥٢م) والغوريين (١١٨٦ – ١٢٠٦ م) والماليك (١٢٠٦ – ١٢٩٠م) ، والخلجيين (١٢٩٠ – ١٣٢٠م) ، والتغلقيين (١٣٢٠ – ١٤٤٠م) ، والسادة (١٤١٤ – ١٤٥١م) واللوديين والمغول . مع أن اللغة العربية لم تكن لغة رسمية قط في العهود الإسلامية ، فإنها حظيت بعناية الحكام المسلمين لكونها لغة القرآن الكريم والمصادر الدينية المهمة ، فهي ظلت تنتشر وتتطور ، تؤثر وتتأثر في الأجواء الهندية عبر القرون المديدة .

التبادل اللغوي بين الهند والعالم العربي :

إن وجود العلاقات الوطيدة بين المنطقتين الهندية والعربية قبل فجر الإسلام وبعده قد أدّى إلى تبادل لغوي بينهما بشكل كبير . نجد أن مفردات كثيرة وألفاظا متنوعة دخلت اللغة العربية ترجع جذورها إلى الأصول الهندية ، وكذلك أثرت العربية في اللغات الهندية الشهيرة بشكل أكبر . فالكلمات التالية محاولة لتسليط الضوء على التأثيرات اللغوية المتبادلة ما بين اللغة العربية واللغات الهندية عبر القرون المديدة .

استعارة العرب من الألفاظ الهندية :

كانت بدايات الروابط ما بين العرب والهند مقتصرةً على التعامل التجاري حيث كان العرب يستوردون من الهند بعض منتجاتها كالتوابل والحرائر والعطور والأخشاب والأحجار الكريمة وغيرها ، من ثم استعار

[1] . المعارك الإسلامية في الهند ، ص ٧ .

العرب القدماء الفصحاء مفردات كثيرة لهذه الأشياء من اللغات الهندية . وكل كلمة استعارها العرب واستعملوها في لغتهم أصبحت جزءً من العربية الفصحى فاستعمل القرآن الكريم بعضها أيضاً ولو كانت في أصل وضعها أعجمية . فأولاً أريد أن أذكر كلمات استعارها العرب من الهنود وتم استعمالها في القرآن الكريم أيضاً ، وهي كالتالي :

زنجبيل : وردت كلمة زنجبيل مرة واحدة في القرآن في قوله تعالى : " وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً " [1] . إن كلمة " زنجبيل " هي في الأصل من اللغة السنسكريتية (الهندية) ، وهي معربة من لفظ " شرنكوير " أي العروق التي كالقرون ، أو من لفظ " زنجابيرا " الهندية [2] . ومما يؤكد هندية " زنجبيل " قول جرجي زيدان " لو رجعنا إلى منبت هذا العقار ، لرأيناه هندياً . . ورأينا اسمه في اللغة السنسكريتية " زرنجابيرا " مشتقة من " كرينجا " أو " زرنجا " أي القرن لمشابهة جذوره به . . فيترجح عندنا أنه سنسكريتي الأصل [3] .

كافور : وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى " إِنَّ ٱلأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ من كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً " [4] . إن هذه الكلمة معربة من كلمة " كبور " الهندية ، وأيده جرجي زيدان أيضاً على أنه نوع من أنواع الروائح والطيب و " العرب أخذوا عن الهنود كثيراً من المصطلحات التجارية . . . وأسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والطيب مما يحمل من بلاد الهند [5] .

مسك : وردت هذا اللفظ في القرآن الكريم مرةً واحدةً في قوله تعالى : " يُسْقَوْنَ من رَّحيقٍ مَّخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ " [6] . وقع الاختلاف في أصل هذه الكلمة ، ولكن الراجح أنها من أصل سنسكريتي كما يؤيد جرجي زيدان هندية لفظ " المسك " بقوله " المسك

---

[1] . سورة الإنسان ، الآية : ١٧ .
[2] . العرب والهند في عهد الرسالة للقاضي أطهر المباركفوري ، ص ٢٧ .
[3] . اللغة العربية حي كائن لجرجي زيدان ، ص : ٢٠ .
[4] . سورة الإنسان ، الآية : ٥ .
[5] . اللغة العربية حي كائن لجرجي زيدان ، ص : ١٨ .
[6] . سورة المطففين ، الآية : ٢٥ – ٢٦ .

– مـثلاً – فإنـه موجـود في العربيـة و في الفارسـية وفي السنـسكريتية وفروعها ، فإذا عرفنا أن المسك يحمل إلى العالم من تونكين ، وتبت ، ونيبال ، والصين ، وإن الهنود القدماء كانوا يحملون الطيب إلى الأمم القديمة ويمرون بسفنهم ببلاد العرب ، ترجح عندنا أن العرب أخذوا هذه اللفظة عن الهنود "[1] .

هذا ، وقد اقتبس العرب كثيراً من الألفاظ ذات الأصول الهندية أو السنسكريتية ومعظمها من المصطلحات التجارية وأسماء السفن وأدواتها وأسماء الحجارة الكريمة والعقاقير والأطياب مما كان يحمل من بلاد الهند . فأذكر فيما يلي قائمة موجزة لأشهر المفردات والكلمات التي استعارها العرب من الهنود ، وهي كالتالي :

كلمة عربية	سنسكريتية / هندية	انجليزية
(خشب) صندل	تشندن	Sandal (wood)
مسك	مسكا	Musk
كافور	كبور	Camphor
زنجبيل	زرنجابيرا	Ginger
جائفال	جاتيفالا	Nutmeg
نارجيل	ناريل	Cocoanut
ليمون	نمبك	Lemon
شطرنج	شطرنجا	chess

وتوجد هناك مفردات عربية أضيفت إليها كلمة " هندي " للدلالة على المنتجات الهندية الخاصة مثل " عود هندي " ، " قسط هندي " و " تمر هندي "[2] .

تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية :

ذكر الأب رفائيل نخلة اليسوعي في كتابه " غرائب اللغة العربية " بأنه توجد أكثر من ست وعشرين لغة في آسيا وحدها تأثرت

[1] . اللغة العربية حي كائن لجرجي زيدان ، ص : ١٩ .

[2] . The Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature by M .G . Zubaid Ahmad, p . 5.

باللغة العربية بشكل أو آخر ، واتخذت حروفاً عربية للكتابة – ولكن هذا رأيه لا اتفق معه إذ توجد في الهند وحدها عشرات من اللغات التي تأثرت بالعربية بصورة ما – ومن أهم اللغات الهندية التي تأثرت بها هي : الأردية ،الهندية (اللغة الرسمية) في شمال الهند ، والدكنية لغة المسلمين في الهند الغربية والجنوبية ، والكشميرية والكورانية في كشمير ، والبنجابية في البنجاب ، والسندية في الإقليم الشمالي من ولاية بومباي في الهند ، والتاميلية جنوب الهند وجزيرة سيلان ، والميالامية في الهند الجنوبية الغربية [1] . ولكن اللغة الأردية هي أكثر اللغات الهندية تأثراً باللغة العربية ، فأريد أن أتناولها بقدر من التفصيل مشيراً إلى البعض الآخر بالإيجاز .

تأثر اللغة الأردية باللغة العربية :

لغة " أردو " من أكثر اللغات تأثراً باللغة العربية ، بل هي وليدة لثلاث لغات شهيرة وهي العربية والفارسية والتركية . ولأن موطن اللغة الأردية هو شبه القارة الهندية ، فإن قواعدها وتراكيبها وأفعالها وضمائرها كانت هندية خالصة ، أما ألفاظها ومصطلحاتها فقد استمدت من العربية والتركية والفارسية ، ثم استبدلت الأفعال الهندية بالأفعال الفارسية ، أما العروض ببحوره وقوافيه فهو العروض العربي ، وأبجديتها هي الأبجدية العربية مع بعض الحروف الزائدة [2] .

فاللغة الأردية مليئة بالألفاظ والمفردات العربية لا يمكن إحصاؤها في هذا المقال الموجز التي دخلت الأردية إما مباشرة عن طريق الاحتكاك بالعرب عندما فتح محمد بن قاسم الثقفي إقليم السند وأقام الدولة الإسلامية هناك ، أوعن طريق اللغة الفارسية إذ كانت هي لغة الفاتحين المسلمين الذين دخلوا الهند الشمالية الغربية من إيران و تركيا [3] .

إني أريد أن أذكر فيما يلي بعض الكلمات والمفردات العربية على سبيل التمثيل لا الحصر التي تم اقتراضها واستعمالها في اللغة الأردية الحية في مجالات مختلفة من الدين ، والطب ، والسياسة وغيرها :

[1] . غرائب اللغة العربية للأب رفائيل نخلة اليسوعي ، ص : ١٢٤ – ١٢٦ .
[2] . مقال " التلاقح بين اللغة العربية ولغات المسلمين الأخرى ، التاريخ العربي .
[3] . الألفاظ العربية المستعملة في الأردية لظهير أحمد ، ص : ١٣ – ٢٣ .

الكلمات التي تتعلق بمجال الدين : وهو مجال قد أخذت اللغة الأردية فيه كلمات كثيرة من اللغة العربية ، والسبب في ذلك أن اللغة الأردية تطورت في أحضان اللغة السنسكريتية واللغات الأخري التي تعبر عن ديانات وعقائد بعيدة عن الدين الإسلامي ، ولذلك فإن اللغة العربية كلغة الإسلام والرسول – عليه السلام – لعبت دوراً هاماً في اختيار الألفاظ الدينية للأردية وذلك أن مسلمي الهند لم يجدوا كلمات سنسكريتية أو كلمات من لغات أخرى مقابل هذه الكلمات التي تتعلق بدينهم مثل : الحج – العمرة – الزكاة – إمام – بار – اجتهاد – إجماع – أحكام – أخلاق – أذان – استخارة – استغفار – اعتكاف – إفطار – عذاب – فتوى – فرض ، وغيرها [1] .

الكلمات التي تتعلق بمجال اللغة والأدب : أدب – أديب – إسم – إشارة – إضافة – اقتباس – أمثال – أفعال – إملاء – إنشاء – أوزان – بلاغة – بحر – تأكيد – تأنيث – تذكير – تركيب – جامد – جملة – شاعر – صوت – ضمير – فاعل – قياسي – كاتب – لازم – لفظ – ماضي – مبتدأ – مركب – مضاف – موضوع – نثر – نظم – وزن – دواة – قلم – كتاب ، وغيرها [2] .

الكلمات التي تتعلق بمجال الطب : دواء – آلام – احتلام – إسهال – أطباء – أمراض – إمساك – بلغم – جراثيم – جراح – حمل – زكام – شفاء – حاملة – حكيم – طبيب – علاج – عيادة – مرض – نفاس – نطفة – ورم – ولادة ، وغيرها [3] .

الكلمات التي تتعلق بمجال السياسة : استعمار – اشتراكية – أقلية – أكثرية – انتخاب – انقلاب – ترجمان – حاكم – حقوق – خليفة – زعيم – سلطان – مدير – محكمة – معزول – منصف – ميثاق – والي – وزير – وطن – وكيل ، وغيرها .

الكلمات التي تتعلق بمجال التعليم والتربية : امتحان – أستاذ – تدريس – تصنيف – تعليم – جاهل – جواب – حل – ذهين – سؤال – سطر –

[1] . الألفاظ العربية المستعملة في الأردية لظهير أحمد ، ص : ١١٨ .
[2] . المصدر السابق ، ص : ١٣٩ .
[3] . المصدر السابق ، ص : ١٨٣ .

شـرح – طالـب – عـالم – علـم – فـن – كتـاب – مؤلـف – مـاهر – مذاكرة – محقق – مرجع – مرحلة – مصور ، وغيرها [1] .

تأثر البنجابية بالأبجدية العربية :

مـع أن اللغـة البنجابيـة الـتي يستخدمها قـوم السيخ البنجـابيون في إقليم بنجاب الشرقي في الهند اختارت "غور مكهي" كأبجديتها ولكن اللغة البنجابية التي ينطقها البنجابيون الباكستانيون اختارت كل حروف الهجاء الأردية كأبجديتها بدون أي تغيير وتعديل . والجدير بالذكر أن جميع الحروف الهجائية العربية موجودة في اللغة البنجابية مثل الأردية ، كمـا أن أبجديـة هـذه اللغـة أيـضًا تكتـب مـن اليـمين إلى اليـسار ، مثـل العربية والأردية [2] .

تأثر السندية بالأبجدية العربية :

إن العربية كانت لغة رسمية في الدولة الإسلامية في السند وملتان فتأثرت اللغة السندية باللغة العربية كثيراً ودخلت الألفاظ العربية بكثرة في اللغة السندية حتى اتخذت الخط العربي لكتابتها كما أخذت بعض الأصوات العربية التي لم تكن موجودة في السندية قبلاً ، مثل : ث – ح – ص – ض – ط – ظ – ذ – ع [3] . وعدد حروف الهجاء في اللغة السندية ، اثنان وخمسون حرفاً ، وبعد دراسة الحروف الهجائية السندية ، يجلو تماماً أن الأبجدية السندية قد أخذت من اللغة العربية ، بالإضافة إلى طريقة الكتابة (من اليمين إلى اليسار) جميع حروفها الهجائية بالإضافة إلى الأبجدية السندية الأخرى [4] .

خلاصة القول أن العلاقات التجارية بين الهند والعالم العربي قد بدأت منذ ما قبل التاريخ ، أما العلاقات السياسية والثقافية قد بدأت بينهما بعد فجر الإسلام ما أدى إلى تبادل مستمر للغات والآداب والحضارات .

---

[1] . المصدر السابق ، ص : ٢٠٣ و ٢١٠ .
[2] . مقال " تأثير الأبجدية العربية في أبجديات اللغات الباكستانية " ، ص : ٤٥ – ٤٦
[3] . الألفاظ العربية المستعملة في الأردية لظهير أحمد ، ص : ١٣
[4] . مقال " تأثيرالأبجدية العربية في أبجديات اللغات الباكستانية " ، ص : ٤٧ .

من دراسة شبابنا

تاريخ المسلمين بين الرفض والتزوير

الأستاذ شعيب الحسيني الندوي *

يقول الله تبارك وتعالى : " هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ " . إن من طبيعة الإسلام أن ينمو وينتشر ويساير جميع الأزمان والأماكن ويعالج سائر القضايا والحوادث ويقابل معظم الأفكار والأديان ويغالبها فيغلب .

التاريخ هو حامل وحارس ثقافة قوم ، وهو ذاكرة الشعب وثقافته ، هذه الذاكرة التي تورّث للأجيال اللاحقة مكونات الهوية والشخصية ، والتي تحمي صاحبها في المنعطفات التاريخية وتجعله أكثر حكمة وشمولية وموسوعية ومعرفة للأحداث والنتائج ، وأكثر قدرة على تفسير وتحليل مجريات التطورات التاريخية والتعامل معها ، إنها الخبرة التاريخية التي لولاها لبقي الإنسان بالفعل طفلاً ، وصدق قول الخطيب الروماني شيشرون المشهور : " من لا يعرف التاريخ يبق طفلاً أبد الدهر " . وكيف لا ؟ فإنه أخطر العلوم الإنسانية إذ هو يحتضن نشاط الشعب القومي والروحي حيث تتحد قسمات أمة حضارية وقومية خلال تاريخها .

انطلاقاً من قلب الدنيا المعمورة مكة المكرمة نورت أشعة الدين الحنيف الكوكبة الأرضية نصفها بل أكثرها في أقل من قرنين ورفرف رايته في القارات الآسيوية والإفريقية والغربية خلال فترة وجيزة ، وذلل الإمبراطوريات الكبرى في سنوات معدودات ، حتى دوى صداه في أقصى البلاد وأدناها كالصاعقة في السماء وانتشر صيته في العالم البشري كله كالنيران في الهشيم ، مما أغرق المؤرخين في لجي الحيرة والدهشة والاستغراب كيف يتيسر لدين يطير بجناحيه بهذه السرعة الفائقة أن يعش ويبيض ويفرخ في أصقاع البوتقة الأرضية طولا وعرضا ولا تعوقه العواصف الهوجاء ولا تعرقل سيره الريح المعادية النكراء ، وليس له تأويل

* محاضر بكلية الدراسات الإسلامية بجامعة عين المعارف ، كنور ، كيرلا .

– كيفما أوله المؤولون – إلا موافقة هذا الدين بالفطرة البشرية وملائمته بالطبيعة السليمة وجدارته بقيادة البشرية الرشيدة .

الأصل في تاريخ الإسلام، أن يدرس – إذا أردنا دراسة علمية منهجية صحيحة – على أنه تاريخ دين جديد جاء والعالم يتسكع في دياجير الظلام ويعيش في جهالة عمياء ، ساد الفساد وعمت الفوضى ومد الجور رواقه على الدول الكبرى ، وكل طبقة من طبقات الشعوب تاهت في دُجي الغفلة وتدحرجت في حضيض الانحطاط الخلقي والتدهور الاجتماعي ، ثم كيف عالج هذا الدين الحنيف هذه القضايا الكبرى التي لم تكد تجد حلاً في أي نظام من النظم البشرية أو فلسفة من الفلسفات الوضعية عبر القرون المتطاولة .

أما الجهاد الإسلامي فهو استجابة للأمر بتبليغ رسالة الإسلام للعالمين ، ودعوة الناس إلى النظام الإلهي أجمعين، فكان فتح القادسية واليرموك ثم فتح الأندلس ، ومحاولات فتح القسطنطينية ، ثم الصراع الدائم على الحدود والثغور ، ثم جولة الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين، ثم سقوط القسطنطينية ، ودخول الإسلام إلى قلب أوروبا ، ودخول كثير من أقاليمها في الإسلام ، ثم محاولة الصليبية الالتفاف حول ديار الإسلام ، وعقد الأنشوطة حوله – على حد تعبير (توينبي) مؤرخهم – ثم محاولة اختراق ديار الإسلام منذ القرن التاسع عشر ، على أيدي (نابليون) وحملته على الشرق ، ثم حملة (فريزر) التي أرادت الدخول من بوابة مصر أيضاً ، ثم حملة فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠م . . . . إلخ . . . كل ذلك في سبيل تحقيق الأمن والسلام وإخراج العباد من أغلال الجاهلية وتحريرهم من براثن الشيطان إلى رحابة الإسلام وعدل النظام .

وفي جانب حضاري مدني لينظر الباحث إلى تلك المدن التاريخية التي صنعها المسلمون كالكوفة وحلب والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة والرقة والفسطاط والقيروان وفاس ومراكش والجزائر وغيرها وخلفت الحضارة الإسلامية مدناً متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها ودمشق والقاهرة بعمائرها الإسلامية وحلب وبخارى وسمرقند وبلدان ما وراء النهر ، ودهلي وحيدرآباد وقندهار وبلخ وترمذ وغزنة

وبوزجان وطليطلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفو وأصبهان وتبريز ونيقا وغيرها من المدن الإسلامية .

وفي جانب ثقافي يسرح قداح أنظاره إلى بيت الحكمة ببغداد ، وجامعة القزوين بفاس ، وجامعة الأزهر بمصر التي حملت موكب العلوم والفنون وحركت مركب الحكم والمعارف نحو تقدم باهر ورقي زاهر وازدهار فاخر ، هذا هو تاريخ الإسلام إن أردنا أن ندرسه على حقيقته ، بمنهج علمي سليم .

لقد تعرض التاريخ الإسلامي لأكبر قدر من الغزو الفكري ، وركز الأعداء على تشويه تاريخ الأمة الإسلامية ، ذلك أن التاريخ – بالنسبة لأية أمة – هو مجال اعتزازها وموطن القدوة بها . فإذا كان تاريخ الأمة حافلا بالأمجاد – كما هو واقع تاريخ المسلمين – فإنه بلا شك سيكون باعثاً لهم على النهوض والتمسك بالمبادئ والآداب والقيم التي جعلت الأجداد يحرزون هذا المجد والفخار ، ويصلون إلى هذا المستوى الراقي في بناء الأمة والحضارة ، ويبحثون عن السر الذي رفعهم إلى هذا المستوى ، وأنه إيمانهم بالله وتمسكهم بدينهم وجهادهم في سبيل الله ، ومن ثم يسعون جاهدين لانتشال أنفسهم من الوضع المتردي الذي وصلوا إليه ، وأمامهم الصورة الجلية والقدوة الممتازة في شخصية رسولنا العظيم صلى الله عليه وسلم الذي أخرج الله به الأمة من الظلمات إلى النور ، ومن الشرك والأهواء وتحكم الطواغيت إلى التوحيد والعدل والأمن والطمأنينة ، ومن الفقر وضيق الحال والشتات إلى الغنى وسعة الدنيا والآخرة والاعتصام بحبل الله . وكذا أصحابه الذين حملوا الراية وآزروه ونصروه ، وأيضاً بقية الأجيال من السلف الصالح من العلماء والزعماء والقادة والمصلحين والدعاة إلى الحق ، والنماذج الممتازة في التاريخ الصالحة للقدوة ليسوا أفرادا يمكن حصرهم ، ولكنهم أجيال وأجيال ، في مجالات الحياة كافة ، العسكرية والسياسية والتربوية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية وهذا لا يوجد في تاريخ أية أمة أخرى لما لهذه الأمة من خاصية الاستمساك بالمنهج الرباني ، والتاريخ الإسلامي هو الذي يسجل هذه الصور السابقة ويوضح دور الأمة وأثرها وفضلها على البشرية .

كرس أعداء الإسلام جهودهم الجبارة على مسخ القرآن ففشلوا كل الفشل إذ القرآن مصون من كل تحريف وتبديل حسب تصريح منزله العلام ، يقول الله عز وجل : " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " . ثم أقبلوا إلى السنة النبوية المطهرة وأثاروا الشكوك حولها ونسجوا الشبهات بأوهن البيوت، ولكن قيض الله علماء أكفاء أفحموهم بالبراهين الساطعة وردوا مزاعمهم بالحجج القاطعة . ثم رموا إلى التاريخ الإسلامي بالتهم وصوروا المسلمين بأبشع الصور وحاولوا كل المحاولة لتشويه الإسلام وتاريخه وسعوا كل السعي في النيل من شأن المسلمين ومفاخرهم عبر التاريخ بالرفض والتزوير .

إنما الخطر في منهج المزورين من أعداء الإسلام أنهم يقفون عند بعض الأحداث التي وقعت في تاريخ الإسلام مما لا يخلو تاريخ قوم منها وهي عثرات تستلزمها البشرية ، ويصوغون منها تاريخنا ، فمسخوا به الإسلام وطعنوا به في تاريخ المسلمين ، ولذا نشأت أجيال من خاصة المثقفين لم يبق في ذهنهم من تاريخ أمتنا إلا هذه المآسي التي انطبعت في أعماق أفكارهم، وهم يمقتون تاريخ الإسلام ، ويتخيلونه أو يصورونه تعمدا ساحة مظلمة ، يسيطر عليها الجهل والطغيان ، والقتل ، والظلم الاجتماعي .

بعض مزاعم المستشرقين عن تاريخ الإسلام وصور التزوير فيه :

لا ينفك المستشرقون يلعبون دوراً كبيراً لتشويه تاريخ الإسلام وإلصاق وصمة العار على وجوه المسلمين بالطعن في بعض مواقف السيرة النبوية ليمنعوا بني جلدتهم من الدين الإسلامي الحنيف وينفروا بني آدم عامة من دين محمد صلى الله عليه وسلم، ولتحقيق هذا الهدف الدنيئ والمخطط المشؤوم اختلقوا الروايات الواهية وسعوا وراء تسقط الأخطاء وجمع المثالب وإبرازها على أنها الصورة المعبرة عن تاريخ الإسلام ، فهم صوروا المسلمين وحوشا سفاكة وأصحاب همجية وتطرف وأنهم يعيشون حياة تخلف وتوتر .

من صور مسخ الإسلام وتزوير التاريخ الإسلامي النيل من الصحابة وإسقاط الثقة بهم ، يكتب المستشرق توماس آرنولد المشهور عند كثير من المسلمين باعتداله في كتابه (الخلافة) ونسبه إلى المستشرق الإيطالي

كايتياني ووصفه بأنه من أعظم المؤرخين المعاصرين : أنه ما أن لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى حتى تآمر ثلاثة من الصحابة على اقتسام السلطة وتوارثها ، وعندما تحدث هؤلاء المتعصبون عن الفتوحات الإسلامية حاولوا تفسيرها انطلاقا من تاريخهم الأوروبي ونظرتهم المادية للأمور ، فقد كانت الفتوحات في نظرهم بحثاً عن الغنائم والمكاسب المادية ، كما وصفها مستشرق آخر بأنها كانت آخر موجات الهجرة من جزيرة العرب التي عرفت مثل هذه الهجرات في السابق حينما تضيق مواردها .

ولا يكلف المستشرق نفسه البحث في حقيقة دوافع المسلمين في الفتوحات الإسلامية وهي نشر رسالة الإسلام التي تدعو إلى تحرير البشر من العبودية للإمبراطوريات السابقة بل من كل أنواع العبوديات ، وفتح الطريق أمام دعوة الله عز وجل . وقد أثبتت الفتوحات نفسها مدى بعد الغالبية العظمى من الجيش الإسلامي عن الطمع في الغنائم، وهذا جندي ينقل كنوز كسرى إلى المدينة المنورة فيسلمها كما هي فيتعجب عمر بن الخطاب من أمانته، فيقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " عففت فعفت الرعية ، ولو رتعت لرتعوا " وكان جنود المسلمين " رهباناً بالليل فرساناً بالنهار " كما وصفهم أحد جنود الأعداء .

وقد شكك المستشرقون في الجانب الإيماني الغيبي في الفتوحات فزعموا أن الدولتين الفارسية والرومانية كانتا على درجة كبيرة من الضعف وأن جيش المسلمين كان يملك من القوة والعتاد ما يماثل جيوش هاتين الدولتين ، بالإضافة إلى معرفة العرب بالصحراء ودروبها ، وكم هو جاهل هذا المستشرق الذي لم تقنعه كل الروايات التاريخية عن عدد جنود الجيشين الرومي والفارسي وقدرتهما العسكرية ، أما المعرفة بالصحراء فما يقول في معركة القادسية في قلب فارس ، أو معركة الجسر أو معركة اليرموك، فمن كان يعرف البلاد أكثر ، وهل هذه الأنهار تجري في الصحارى ؟

هذا هو بروكلمان الكاتب الشهير الألماني الذي يعد حجة عند الغربيين حتى الباحثين المسلمين يسجل تاريخنا منطلقامن التشكيك ، والرفض العشوائي ، معتمدا على الروايات الواهية الشاذة ، والتي رفضها

النقاد الباحثون ، واستغربها العلماء ، بل وأشاروا إلى نشوزها ، لكن بروكلمان – كغيره من المستشرقين – بنى فكره و رأيه مسبقاً في نفسه، ثم جاء إلى وقائع التاريخ العربي الإسلامي يطوعها لما يؤيد فكرته وخطته المرسومة ، يطمس ، ويضعف ، فقدم تاريخنا ، موسعا الجزئية متغاضيا عن الكلية ، مع تفسيرات عجيبة ، وأقوال ينبو عنها الذوق السليم ، ومن أمثلة ذلك أنه لما يحكي سيدنا خالد بن الوليد فيختلق قصة ضليلة ويقويها بأوهن الأدلة ، فهو يقول : إن خالدا قتل مالك بن نويرة المرتد وجماعته لأجل الطمع في زوجته الجميلة ، ويستدل بتاريخ اليعقوبي وكتاب الأغاني للأصبهاني وهما يميلان إلى التشيع ، وكتابهما ليس بمستند معتمد عند المحققين من المؤرخين ، ثم من يصدق من المؤمنين عن السيد الجليل خادم الإسلام خالد العظيم المجاهد في سبيل الدين صحابي الحبيب المصطفى الأمين ما لا يليق بمسلم عادي .

الغرب الاستعماري قام بتزوير تاريخه وتاريخنا ، زوّر تاريخه ليسبغ عليه الفضائل والتفوق التاريخي ويجعل من أثينا وروما معلمتين للبشرية ، وفعل بتاريخنا بالتزوير ليمحو منه كل فضل وكل دور حضاري ويسحب منه سبق الحضارة الأولى والأعظم التي رفدت أثينا وروما بأجمل ما تملكان . هذا التزوير الذي انعكس على واقع الأرض السياسي في كيان مصطنع ومركّب ومشوَّه هو " إسرائيل " التي قامت على فبركة تاريخية هي كذبة الأرض الموعودة ليهود العالم في فلسطين ، وقاموا في سبيلها بتسخير كل أدوات الفكر الغربي ومؤسساته لتأليفها وتسويقها وتفعيلها ، بينما في الحقيقة التوراة تحدثت عن قبائل عربية آرامية سكنت اليمن ، وإن إبراهيم الذي وعده الرب بتلك الأرض هو جد الأنبياء جميعهم ، – إذ أن النبيين موسى والمسيح من فرع اسحاق بن إبراهيم ، والنبي محمد من فرع إسماعيل بن إبراهيم – قبل ظهور الدين اليهودي ، وإن الأرض الصغيرة التي تمتد بين نهري الفرات والنيل في بلاد غامد وليس في سوريا ومصر والتي لا تتجاوز مساحتها مساحة الملعب أعطيت لأبناء إبراهيم الآراميين العرب وليس ليهود العالم كما أصبح في التزوير .

ومن حيل تزوير تاريخنا تقسيم الاستعمار الغربي الشعب العربي إلى أقوام وأعراق مختلفة لضرب الهوية العربية ، وإلى هذا تنبه المؤرخ

الفرنسي الكبير بيير روسّي قائلاً : « إنه هوسنا هو الذي قسم شعباً إلى شعوب أقرباء كالمؤابيين والعموريين والآراميين والفينيقيين والسوريين . . . إلخ ، لماذا ؟ لأننا نريد أن نميز بينهم خصوصيات عرقية أو طائفية تجبرنا على أن نضع بينها العبرانيين "[1] .

ومن صور التزوير للحقائق ورفضها إنكار حضارة العرب وتقدمهم المدني ، على الرغم من أن الباحثة الألمانية زيغرد هونكه ربطت تقدم مدينة أسبانيا وأوروبا كلها بالحضارة الإسلامية حيث قالت عنها في كتابها " شمس العرب تسطع على الغرب " : " منارة حضارية وثقافية وعمرانية وعلمية خرّجت الكثير من علماء الغرب الذين تتلمذوا على يد العرب مسلمين ومسيحيين ويهود " ، فإن العنصر الغربي ينسب كل الاكتشافات العلمية العربية إلى التلاميذ الأوروبيين ككوبرنيكوس وغاليلو ودافنشي ونيوتن وغيرهم . . . وهم لا يدرسون عندهم تاريخ العرب إلا التاريخ السياسي تركيزا على الحروب والقتال الدامي بدلا عن التاريخ الحضاري حتى يصبح تاريخ المسلمين مادة منفرة مثيرة للاستهجان والسخرية ، وفي هذا يقول الباحث شاكر مصطفى : " لقد درسنا قصص الذبح والخصومات والحروب وهذا التاريخ السياسي الزائف ، وما من أمة تحترم نفسها تعتبره مثلنا تاريخاً لها ، فكل الأمم عندها منه ما يخجل وزيادة لكنها لا تكرسه ، لكن التاريخ الحقيقي هو ما أعطته الأمة من نتاج حضاري جعل البشر أكثر سمواً "[2] .

وفي الآونة الأخيرة تغير منهج المستشرقين وبدؤا يتجنبون من تلك الأخطاء العلمية الفاحشة التي وقع فيها المتقدمون من تحريف النصوص والإحالات الخاطئة ، لم يكن ذلك اختيارا للنصفة ورغبة في الحق بل هو خروج من العار الذي لصق بكتاباتهم ولم تحظ بالقبول عند المنصفين من المحققين الغربيين ، ثم هم يحاولون محاولة جديدة للطعن في الإسلام بمكر خبيث ودهاء شديد فالخطة تبدلت والهدف واحد .

---

[1] انظر " مدينة ايزبس ، التاريخ الحقيقي للعرب " للمؤلف بيير روسي ، والترجمة فريد حجا . ص : ٦٩ .

[2] تاريخ العرب . ص : ٥ .

صور وأوضاع

معايير مختلفة للعنف والأمن

الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي

كل من يتابع وسائل الإعلام اليوم من الصحف والإذاعات إلى الإعلام الإلكتروني بوسائله المختلفة التي أصبحت هي بمتناول الجميع بعد أن كانت محدودة زمانياً ومكانياً ،يجد في مقدمة ما تتناوله وسائل الإعلام بالبحث والتعليق أعمال العنف ومختلف وسائل عنف وأغراضه ، ومنها ما يتعلق بالأغراض الاقتصادية من النهب والاختلاس والاحتيال الماكر لكسب المال من هجوم على أموال ، أو الاعتداء على صاحب مال .

وتأتي في الدرجة الثانية أعمال العنف لأغراض خسيسة ، التي كثرت وعمت في هذا العصر ويرجع كل ذلك إلى وسائل الإعلام التي تركّز على الأخبار في الصحف كانت أم في وسائل الإعلام الإلكتروني التي يملكها كل من الأطفال إلى الكبار ، ويشاهد مناظر مثيرة للهجوم ، ويستبيح ارتكاب أعمال عنف إذا لم يجد وسائل تسلية وتهدئة ولم يكن لديه رادع خلقي أو ديني .

وفي الدرجة الثالثة يأتي العنف السياسي الذي يستوي فيه الأفراد والجماعات والحكام والمسئولون ،وقد عمّ هذا النوع من العنف في العالم كله ، وتحدث وقائعه في سائر دول العالم ، لا تستثنى منها أوربا ، ويصادف المتابع للإعلام كل يوم خبراً لهذا النوع من العنف ، وقد اتخذ هذا العنف سعةً وتأثيراً بوسائل ميسرة من العنف ، وإذا لم يجد الإنسان وسيلةً للقيام بالعنف لتحقيق مقاصده وأهدافه فإنه يختار الانتحار وقد تصاعد عدد الأفراد الذين ينتحرون ، ونسبة الانتحار في الدول الراقية أكثر ، ففي أوربا واليابان تبلغ نسبة المنتحرين آلافاً ،وتفيد بذلك الإحصائيات التي تنشرها وكالات حقوق الإنسان .

وقسم آخر للعنف وهو أكثر تأثيراً ، هو العنف السياسي الذي يمارسه الحكام والمسئولون اليوم في مختلف دول العالم لقمع حريات الشعوب في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والخلقية والعقدية حتى في الأكل والشرب ، وفي المعاملات والثقافة ، فيقدم الحكام حسب معتقداتهم وأهدافهم قوانين تقيد حرية الشعوب .

وقد كان النظام الاشتراكي في مقدمة الدول لقمع الحريات الشخصية ، وكان المجتمع الديمقراطي الذي يدعي بالحرية المطلقة بعيداً عن هذا النظام ، لكنه في الآونة الأخيرة اختار هذا المنهج بأسماء وتعبيرات تلائم سياسته وتناسب هذا النظام الذي يدعي بالحرية المطلقة في العقيدة ونظام الحياة والأكل والشرب والمعاملات ليمارس وسائل العنف باسم مكافحة الإرهاب ومعاداة الحضارة الغربية ، وهذا هو التعبير الذي يغطي سائر جوانب الحياة وأحوالها ، قد أصبح شائعاً يتصدر المحادثات واللقاءات بين الزعماء في العالم وأصبحت مكافحة الإرهاب في درجة الأرجحيات والأولويات في المحادثات بين القادة .

ولكن الذي يلاحظ في الإرهاب أنه لا يقصد به إلا العمل الإسلامي حقيقة ، فإنه تدل على هذا الاتجاه وقائع العالم اليوم ، وأمثلته كثيرة ، ويركز الزعماء على أعمال عنف فردية إذا نسب هذا العمل إلى المسلمين لكنهم في الوقت نفسه يتجاهلون ويغضون بصرهم عن أعمال عنف جماعي إذا كان الهدف لهذا العنف المسلمون ، وهم عند ذلك يطاطأون الرأس ويمولون وسائل مكافحة الإرهاب في بلد بغض البصر عن الإرهاب الجماعي حتى الإبادة إذا كان عرضتها المسلمون .

وإن الهند لا تستثنى منها ، فإن المسلمين يواجهون هجمات منظمة يمارسها الشباب الهندوس المتطرفون حتى في القطارات والحافلات باسم صيانة البقرة ، وعمت هذه الظاهرة حتى وبخت المحكمة العليا الحكومة الراهنة التي يقودها حزب بهارتيا جانتا المعروف بعدائه للمسلمين ، ووجهت إليها الأمر باتخاذ إجراءات صارمة ضد المهاجمين وتعيين سلطات خاصة لمراقبة أعمال العنف ومعاقبة المتورطين في أعمال العنف .

كذلك حقوق الإنسان وحرية العبادة إذا كان فريسته غير مسلم فهو مسألة خطيرة لهؤلاء الحكام ، وإذا كان فريسته المسلمون فلا يبالي بهذا العمل أحد .

ومن الأمثلة الأخيرة لهذا التمييز بين عنف وعنف ما يحدث في مختلف بلدان العالم من حوادث يتعرض لها المسلمون وتهديدات لبقائهم في البلاد واتباع تعاليم دينهم كما يحدث في بورما والشام ومصر ومناطق آسيا الوسطى ودول إسلامية أخرى حيث تتخذ إجراءات لقمع الاتجاه الإسلامي حتى الصلاة .

وإذا كانت الأقلية غير مسلمة فيهتم بها زعماء العالم وإذا كانت مسلمةً فلا تستحق في هذا التمييز وأعمال القمع والكبت ، اهتمامَ أحد من

زعماء الدول في العالم حتى الدول الإسلامية تستحي وتتردد في إثارة هذا التمييز الديني والعنف حتى الإبادة الجماعية .

وأحدث مثال لهذا التمييز في اعتبار العنف وصلاحيته للإدانة ما يحدث في ميانمار التي خرقت سائر الحدود في حقوق الإنسان ونشرت وسائل الإعلام العالمية صوراً للهمجية والبربرية التي يمارسها الفئات المسلحة البوذية في ميانمار ، ومما يبعث على الأسف أن الحاكمة المعاصرة قد انتخبت مرشحة لجائزة عالمية نوبل للسلام .

وقد أدان مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة أعمال العنف في ميانمار ، فأعرب أعضاء مجلس الأمن الدولي عن قلقهم العميق إزاء تدهور الأوضاع الإنسانية في ولاية راخين في ميانمار ، ومع أن المجلس أقر بالهجوم الذي وقع ضد مراكز للشرطة ، الذي قام به أفراد يقال إنهم من الروهينغا ، إلا أنهم أدانوا العنف الذي تبعه والذي أدى إلى تشريد أكثر من ٣٧٠ ألف شخص ، ويمثل هذا العدد نحو ثلث التعداد الإجمالي لأقلية الروهينغا في ميانمار ، والذي يقدر عددهم بأكثر من مليون شخص ، ولا تعترف حكومة ميانمار بوجودهم وتحرمهم من الجنسية والتعليم والخدمات الأخرى .

وأكد الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش على ضرورة إعطاء مسلمي ولاية راخين في ميانمار الجنسية أو على الأقل ، في الوقت الحالي ، وضعاً قانونياً يسمح لهم بعيش حياة طبيعية واصفاً وضعهم بـ « الكارثي » .

وتناول غوتيريش في مؤتمر صحافي في نيويورك تناول فيه بعض أبرز التحديات الدولية أن « المظالم التي تركت لتستفحل على مر العقود ، تصاعدت الآن لتتخطى حدود ميانمار وتزعزع استقرار المنطقة » . وقال إن : « الوضع الإنساني كارثي . . . إنها مأساة درامية ، الأشخاص يموتون ويعانون بأعداد مفزعة ولا بد من وقف ذلك » . وأضاف : « عندما التقيتكم الأسبوع الماضي كان عدد اللاجئين من الروهينغا الذين فروا إلى بنغلاديش ١٢٥ ألفا ، زاد هذا العدد الآن ثلاث مرات ليصل إلى ما يقرب من ٣٨٠ ألفاً . يقيم الكثيرون في تجمعات مؤقتة أو مع مجتمعات تشارك بسخاء ما تملكه ، ويصل الأطفال والنساء جوعى يعانون من سوء التغذية » .

وقال غوتيريش : إن العنف في ميانمار خلق كارثة إنسانية ، مشيراً إلى أن أنشطة الإغاثة التي تقوم بها وكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية الدولية ، قد عرقلت بشكل حاد . ودعا غوتيريش السلطات إلى وقف العمل العسكري وإنهاء العنف واحترام سيادة القانون والاعتراف بحق

العودة لجميع من اضطروا لمغادرة البلاد والسماح بوصول المساعدات ، وحث جميع الدول على فعل كل ما يمكنها لتوفير المساعدات الإنسانية .

وقد ألغت حاكمة ميانمار أونغ سان سو تشى زيارتها لنيويورك للمشاركة في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فيما تواجه سيلاً من الانتقادات بسبب صمتها حيال العنف الذى دفع أعداداً ضخمة من مسلمى الروهينغا إلى الفرار من ولاية راخين .

واستنكر الزعيم الروحى للتبت الدلاى لاما الثلاثاء الهجمات ضد مسلمى الروهينغا في ميانمار على يد رهبان بوذيين ، قائلاً إن القتل باسم الدين شيئ لا يمكن قبوله .

وقال الدلاى لاما – وهو زعيم بوذى أمام تجمع بجامعة ماريلاند بمستهل جولة له بالولايات المتحدة – : إن السبب الأساسى للصراع في ميانمار سياسى وليس روحياً .

واعتبر أن قتل الناس باسم الدين شيئ لا يمكن تصوره ، وهو أمر محزن جداً في الوقت الحاضر حتى لو ارتكبه البوذيون في ميانمار ، وناشد الرهبان أن يتذكروا وجه بوذا الذى كان حامياً للمسلمين ، على حد قوله .

وقد اتهمت منظمة هيومن رايتس ووتش ميانمار بتنفيذ حملة تطهير إثنى ضد أقلية الروهينغا المسلمة ، مشيرة إلى أن عدداً من المسؤولين في ميانمار ومن قادة المجموعات والرهبان البوذيين نظموا وشجعوا الهجمات في القرى المسلمة بدعم من قوات الأمن .

ورغم هذه الاحتجاجات والتنديدات أفادت الأنباء أن القادة العسكريين قالوا : إنهم سيواصلون حملتهم العسكرية لإخراج المسلمين ، وإنه لا يوجد خلاف بينهم وبين الحكومة .

وبالإضافة إلى ذلك يواجه المسلمون في مختلف دول العالم التي هم فيها أقلية ، تهديدات بإخراجهم من البلاد ، وتحدث عمليات إرهابية ضدهم ، وتتعرض المساجد والمدارس للهجمات والاعتداءات ، وتجبر الدول الإسلامية – بحكم كون المسلمين في الأغلبية – على تغيير نظم التعليم والتربية وفرض الحظر على حرية العمل باسم تجفيف منابع القوة والعاطفة الإسلامية .

ويعني ذلك أن للإرهاب والظلم والعنف معايير مختلفة ، ولكل زعيم معيار ويثير ذلك في الأذهان سؤالاً هل للألفاظ والمصطلحات التي تستعمل اليوم معانٍ مقررة ، أم لكل لفظ معنى ظاهري ومعنى باطني ؟

إلى الإسلام من جديد

إذا لم تستح فاصنع ما شئت

محمد فرمان الندوي

الإسلام دين الحمية والغيرة، دين الأنفة والإباء، دين الحماسة والشجاعة، دين جعل الله تعالى ذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ، دين ينشأ فيه الأطفال على عواطف التفاني في طريق الحق ، وصيانة الحرمات والمقدسات، دين يدعو إلى الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية وإن تأزمت الأوضاع وتفاقمت الخطوب ،قال الله تعالى : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (الحج : ٣٩).

فالغيرة معناها : تغير القلب وهيجان الغضب ، وهي غريزة إنسانية ، وفطرة داخلية ، ومظهر من مظاهر الرجولة ، ورائعة من روائع الشكيمة ، وكان العرب غيارى وأولي حمية جاهلية ، فلا يحتملون أدنى ذلة نحو النفس والمال ، فوقعت الحروب واشتبكت الكوارث ، يقول عنترة بن شداد العبسي :

وأغض طرفي ، إن بدت لي جارتي
حتى يواري جارتي مأواها

طلعت شمس الإسلام من أفق تهامة ، فانتشرت الغيرة والإباء من أشعتها ، وقد أعلى الإسلام قدرها ، وأشاد بذكرها ، ومعلوم أن الله تعالى يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرّم الله (رواه البخاري : ٤٩٢٥) ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم أعظم الناس غيرة لله تعالى ، فكان يغضب إذا انتهكت محارم الله تعالى، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه في شيئ يؤتى إليه ، حتى ينتهك من حرمات الله فينتقم منه (رواه البخاري :٦٨٥٣) ، وكان الصحابة قد جُبلوا على الغيرة الإيمانية والحمية الدينية ، فلم يتلكأوا في الخروج في سبيل الله ولم تثلم إرادتهم ، وقد سمعوا يوم أحد من أبي سفيان : اعل هبل ، فقالوا : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فرد الصحابة رضي الله عنهم عليه : الله مولانا ولا مولى لكم (الجامع الصحيح للبخاري باب غزوة أحد) .

وقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي روائع من الغيرة الإيمانية ، وقد مثل رجالها دوراً رائعاً خلد الزمان بذكراهم :

١. منها أن امرأة مسلمة سُبيت في الهند ، واضطهدت في عرضها ونفسها، فنادت : واحجاجاه (إشارة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي) فبلغه ذلك ، فجعل يقول : لبيك ، لبيك ، وأنفق سبعة ملايين من الدراهم حتى حررت .
٢. منها أن امرأة شريفة أسرها الروم ، لا يعرفها الخليفة العباسي المعتصم ، لكنها كانت مؤمنة ، استغاثت واستنجدت من الخليفة حينما اعتدى عليها صاحب عمورية ، ونادت بصوت يملؤه الحزن والكآبة : وامعتصماه، وما إن

قرعت هذه الجملة آذان المعتصم حتى قال : لبيك ، لبيك ، وأشار عليه المنجمون أن الطقس لا يوافق تماماً للإغارة والهجوم ، لكن الخليفة المعتصم لم يبال بذلك ، بل خرج ناصراً لامرأة مظلومة مع جحافل المسلمين ، وفتح قلعة عمورية ، واستخلص المرأة من براثن الروم . وقد عبر عن ذلك الشاعر المعروف أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في قصيدة ، مطلعها :

السيف أصدق إنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

٣. كان السلطان صلاح الدين الأيوبي من أولي الغيرة الإيمانية ، وقد رأى أن البيت المقدس ما زال مكبلاً بأغلال الصهاينة ، واستولوا عليه منذ أمد بعيد ، فثارت غيرته ، وقام يسترد البيت من أيدي الظالمين ، كما سمع أن رجلاً صليبياً من بيوت الأمراء قد أساء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فثارت غيرته ، وحلف أنه إذا قبض عليه قتله بيده ، وكانت في بلاد الشام اثنتا عشرة دويلة ، فسعى لضم هذه الدويلات إلى دولة واحدة ، ونجح فيها ، ثم وقعت معركة حطين وحصل لصلاح الدين النصر والفتح المبين ، فأسر إليه كثير من أبناء الملوك وجماهير الناس ، فتقدم السلطان إلى الرجل الذي أساء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقتله بيده وفاءً لذلك الحلف الذي حلفه وترك الآخرين ، وكان البيت المقدس عند الصليبيين ، فاسترد بقوة قاهر وسلطة جابر .

إن كارثة بورما اليوم ليست كارثة عامة ، بل هي إبادة جماعية للمسلمين ، وليست جريمتهم إلا الإيمان بالله وانتماؤهم إلى الإسلام ، وقد شرد بعضهم من بلادهم ، وقتل بعضهم ، وأحرق بعضهم حتى بلغ عددهم إلى آلاف ، فلم تسمع صوتهم أي دولة محاورة ، فكانوا عرضة للموت والضياع ، رغم أن الأغلبية الساحقة للمسلمين تسكن قرب هذه المناطق وتعمر البلدان المجاورة . لعل هذا الزمان قد ماتت فينا الغيرة الإيمانية ، فلا تحرك كارثة ساكناً ولا تقض حادثة مضجعاً ، الأعراض تنتهك ، والمقدسات تهدم ، وبلدان المسلمين تحول إلى رماد ، وتسوى بالأراض كبفعة مجهولة لا يعيشها إلا البهائم والوحوش ، فليست هنا خلافة يستند إليها المسلمون ، ولم يكن هناك نظام وحدة وتضامن يستنجد منها المشردون ، وإذا كان هناك غيارى على الدين، أو أصحاب حمية دينية ، فلا يملكون غير الدعاء ، ولا شك أن الدعاء سلاح المؤمن ، ولا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، ولا نقول إلا بلسان خير الدين الزركلي:

هاتي صلاح الدين ثانية فينا
جددي حطين أوشبه حطينا

هذا أقل واجب نحو إخوتنا المسلمين المصطهدين ، وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان ، قال رسول صلى الله عليه وسلم : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) (سنن ابن ماجة : ٤١٨٣) .

إلى رحمة الله تعالى

(١) حرم المقرئ مشتاق أحمد البرتابغري إلى رحمة الله تعالى

غادرت حرم المقرئ مشتاق أحمد نجل العارف بالله الشيخ محمد أحمد البرتابغري (رحمه الله تعالى) إلى رحمة الله تعالى في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة الحرام ١٤٣٨هـ الموافق ٢٧/ أغسطس ٢٠١٧م ، بعد معاناة من المرض إلى مدة طويلة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

إنها ساعدت طول حياتها زوجها العزيز الشيخ مشتاق ، على توسعة نطاق التعليم والتربية ونشرها ، وأخيراً أنشأ فضيلة المقرئ المدرسة العرفانية في منطقة لكهنؤالقديمة التي كانت نتيجة دعاء والده ، العارف بالله الشيخ محمد أحمد البرتابغري (رحمه الله تعالى) ، والعلماء الكبار ، وفي مقدمتهم سماحة العلامة الكبير الإمام الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله رحمة واسعة) .

وبالنظر إلى صلة الشيخ مشتاق أحمد بندوة العلماء ورجالها قام بالتعزية على الحادث كل من الأساتذة والطلاب من دارالعلوم لندوة العلماء ، وصلى على المرحومة فضيلة الشيخ العلامة السيد محمد الرابع الحسني الندوي رئيس ندوة العلماء .

ونحن إذ نعزي الشيخ مشتاق ، على الحادث ونشاركه في الحزن على ذلك ، نبتهل إلى الله تعالى أن يتغمد الراحلة بالمغفرة والرحمة ، ويكرم نزلها في جنات ونعيم ، ويلهم زوجها وجميع أعضاء أسرتها الصبر الجميل .

(٢) الشيخ أبو سعد الندوي في ذمة الله تعالى

في ليلة الحادي عشر من شهر ذي الحجة ١٤٣٨هـ الموافق ٣/ من شهر سبتمبر ٢٠١٧م توفي الأخ الفاضل الشيخ أبو سعد الندوي بعد ما ظل طريح الفراش ومعالجاً من الأطباء الإخصائيين ، ورغم أن أهله لم يقصروا في معالجة المرض إلا أنه لم يُكتب له الشفاء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الراحل العزيز من أقارب فضيلة الشيخ الجليل المفتي محمد ظهور الندوي رئيس دار الإفتاء والقضاء في دارالعلوم ندوة العلماء سابقاً (رحمه الله تعالى) ، وكان قد أتم دراسته في دارالعلوم ثم سافر إلى الخارج لإتمام بعض دراساته ، وبعد العودة من خارج البلاد اشتغل بشئون التعليم والتربية ، وكان يشرف على عمله فضيلة الشيخ المفتي العام لندوة العلماء الشيخ محمد ظهور الندوي (رحمه الله) .

وقد خلف الراحل العزيز وراءه أسرة حافلة بالبنين والبنات والزوجة الكريمة ، وندعو الله سبحانه أن يلطف بالعائلة العزيزة ويرحم المرحوم برحمة

واسعة ويكرمه بالمغفرة والجنات والنعيم ، ويلهم الجميع الصبر والسلوان .

(٣) الشيخ علي ملبا إلى رحمة الله تعالى

كان الشيخ علي ملبا من بلدة باتكل بولاية كرناتكا ممن بذلوا جهودهم في سبيل نشر التعليم الديني والعصري ، فكان في مقدمة الجماعة التي وافقت على إنشاء الكتاتيب الدينية ، ثم على تأسيس الجامعة الإسلامية على نطاق واسع بتشجيع من سماحة العلامة الكبير الإمام الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله تعالى) الذي رضي بإلحاقها بجامعة ندوة العلماء منهجاً وفكراً ، ومن ثم كانت للجامعة الإسلامية شهرة وصيت حسن ، وأصبحت لها لجنة تعليمية منهجية كان رئيسها الشيخ علي ملبا إلى آخر أيام حياته ، وقد توفي رحمه الله تعالى في ٩/ من ذي الحجة ١٤٣٨هـ الموافق ١/ سبتمبر ٢٠١٧م ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الفقيد رحمه الله ممن بايع علماء الأمة الكبار على الدين والعقيدة السليمة ، فكان آخرهم العالم الكبير والمربي الشهير العارف بالله الشيخ أبرار الحق حقي رحمه الله تعالى .

ومن خلال التوجيهات التي تلقاها من العلماء والأعلام أفادت هذه المنطقة بكاملها في شأن التعليم والتربية الدينية ، واستفاد الشباب من مشايخ الجامعة الإسلامية ومن الأفكار الدينية التي بثها السادة المهتمون بالإصلاح والتربية في باتكل ، وكان من أبرزهم الشيخ علي ملبا وفضيلة الحاج محي الدين منيري ، ومن تبعهما من كبار المثقفين من التجار والمقيمين في الدول العربية الإسلامية لأغراض تجارية .

كانت حياته نموذجاً كاملاً للصلاح والتورع ، استفاد منه أهله والمحبون له من أجل هذه الخلال التورعية ، فكانت خسارته خسارة كبيرة لأهل باتكل بل المنطقة كلها ، وقد أكرمه الله تعالى بعمر مبارك يربو على تسعين عاماً .

تغمده الله تعالى بواسع رحمته وغفر له زلاته ، وأكرمه بالجنات والنعيم ، وألهم أهله الصبر الجميل والدعاء لجميع عائلته . (والله ولي المتقين)

(٤) الشيخ المفتي أشرف علي الباقوي في ذمة الله تعالى

الشيخ المفتي أشرف علي الباقوي ارتحل إلى ربه الكريم في ١٦/ من شهر ذي الحجة الحرام لعام ١٤٣٨هـ الموافق يوم الجمعة ٨/ من شهر سبتمبر ٢٠١٧م في مدينة بنغلور بولاية كرناتكا (الهند) ، فكان النبأ الأليم مفاجأة محزنة أدهشت الأوساط العلمية والدينية كلها في الهند وخارجها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الفقيد رحمه الله تعالى من العلماء الأفذاذ في هذه البلاد في

صراحة القول والجراءة الدينية ، والدعوة إلى الله تعالى ، فقد خدم العلم والدين بواسطة دارالعلوم سبيل الرشاد التي آلت إليه رئاستها بعد وفاة والده الجليل العلامة المفتي الشيخ أبو السعود أحمد الباقوي (رحمه الله تعالى) .

كان المفتي أشرف علي الباقوي عضو المجلس التنفيذي لندوة العلماء ، وعضو مجلس المشاورة لدارالعلوم وقف ، ديوبند ، ورئيس رابطة الأدب الإسلامي لولاية كرناتكا ، وكان يتصدر كثيراً من المجالس الدينية والعلمية ، ويشرف على الحفلات والمؤتمرات الإسلامية في أنحاء الهند المختلفة ، كما كان من أعضاء العاملين ذوي المكانة العلمية والفقهية لمجلس الفقه الاستشاري لعموم الهند ، فكان يدلي بآرائه الفقهية والاجتهادية من دراساته الفقهية العميقة .

كان متخرجاً في العلوم الإسلامية والدينية من جامعة (الباقيات الصالحات) بمدينة ويلور ، جنوبي الهند ، فكان يعرف بالباقوي ، نسبة إلى هذه الجامعة .

كان والده الجليل الشيخ المفتي أبو السعود الباقوي ذا صلة قوية بندوة العلماء ورجلها العظيم العلامة الإمام الندوي (رحمه الله تعالى) ، وظلت هذه الصلة القوية باقية بكل قوة واعتراف في عهد الشيخ المفتي أشرف علي رحمه الله .

إن وفاته في نحو عمر الشباب خسارة عظيمة للعلم والدين وفراغ في مجال الدراسات العلمية والفقهية .

ندعو الله سبحانه أن يملأ هذا الفراغ برحمة منه ، ويتغمد الفقيد بالرحمة والمغفرة ويكرمه بنزل كريم من جنات ونعيم ، ويلهم أوساط العلم والدين كلها بالصبر والدعاء . (وَما ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ) .

(٥) المحدث الجليل الشيخ ظهير الدين الرحماني في ذمة الله تعالى

فقدت الأوساط العلمية والدينية في الأسبوع الأخير يوم ٢٣/ من شهر ذي القعدة لعام ١٤٣٨هـ العالم المحدث الشيخ ظهير الدين بن عبد السبحان الأثري الرحماني المباركفوري الذي كان من متخرجي دار الحديث الرحمانية في مدينة دلهي ، كان من شيوخ جامعة دارالسلام في عمرآباد ، جنوبي الهند ، حيث اشتغل بتدريس الحديث الشريف إلى مدة طويلة ولما طعن في السن تقاعد ولكنه بقي يفيد العلماء والطلاب بعلمه الغزير وخلقه الرفيع ، كتب بعض تلاميذه :

" كان رحمه الله تعالى غاية في السماحة والتواضع ، بشوشاً لا يتعب ، جيد الحديث بالعربية ، ذاكرته كانت قوية " ، ومع استمراريته بالإفادات العلمية والحديثية ، توفي بعد صلاة المغرب ليلة الثلاثاء ٢٣/ من شهر ذي القعدة ١٤٣٨هـ ، وصلى عليه حشد كبير من المسلمين وتلاميذه في مسجد جامعة

دارالسلام بعمرآباد ، جنوبي الهند بولاية " شنئي " ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له زلاته وأسكنه فسيح جناته ، وألهم أهله وتلاميذه وأصدقاءه الصبر والسلوان .

(٦) الأستاذ سلطان أحمد عضو البرلمان الهندي إلى رحمة الله تعالى

انتقل إلى رحمة الله تعالى الأستاذ سلطان أحمد عضو البرلمان الهندي والزعيم المسلم المعروف في مجال السياسة والخدمات الاجتماعية يوم الثلاثاء ١٣/ من شهر ذي الحجة ١٤٣٨هـ الموافق ٥/ من شهر سبتمبر ٢٠١٧م ، وذلك بعد نوبة قلبية عنيفة أصيب بها في بلدة كولكاتا ، حيث كان يقيم بالاشتغال بالأعمال السياسية والاجتماعية بغاية من النشاط والإيجابية ، وقد شغل منصباً وزارياً في عهد الحكومة السابقة لحزب كونغرس ، كان مريضاً منذ مدة ومعالجاً من الأطباء الإخصائيين في أحد مستشفيات مدينة كولكاتا .

كان الراحل الكريم باشتغاله بالعمل السياسي والاجتماعي مهتماً بالشئون الدينية والملية ، وكان ذا صلة مخلصة في مجال مشكلات المسلمين التي كانت ذات علاقة بالدين والاجتماع ، ويبذل اهتمامه في حل القضايا بإخلاص النية والشعور بالمسئولية .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له زلاته وجزاه خيراً على ما قام به من خدمات خيرة نحو قضايا الإسلام والمسلمين ، وألهم أهله وأعضاءه المحبين له الصبر الجميل .

(٧) الدكتور السيد مجيد أشرف الندوي في ذمة الله تعالى

غادر إلى دار الآخرة أخونا الكريم الدكتور السيد مجيد أشرف الندوي يوم ٢٦/ من شهر ذي القعدة ١٤٣٨هـ الموافق ٢١/ من شهر أغسطس ٢٠١٧م في قريته بمديرية فيض آباد بولاية أترابراديش الهند ، وذلك بعد ما أصابته نوبة قلبية شديدة أدت إلى الوفاة فجاءة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الراحل الكريم من جيل الخمسينيات من القرن المنصرم ، تخرج من دارالعلوم لندوة العلماء في عام ١٩٥٦م ، وقد تلمذ على أساتذة كبار في دارالعلوم ، وبعد ما أنهى دراسته فيها التحق بجامعة لكهنؤ الرسمية حيث حصل على شهادة الماجستير والدكتوراة ، ثم سنحت له فرصة التدريس بكلية أشرف الإسلامية ، وظل فيها أستاذاً إلى مدة حتى أحيل إلى المعاش ، وعاش في قريته مع الأهل وأعضاء الأسرة ، وكان من أقرباء الشيخ الدكتور محمد اجتباء الندوي رحمه الله تعالى .

تغمده الله بواسع رحمته وغفر له زلاته وأسكنه فسيح جناته ، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان .